سامي الجندي

البعث

البَعث

سامي الجندي

البعث

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت - لبنان

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت ١٩٦٩

المحتويات

مقدمة

من كان يحسب سنة ١٩٤٠ – ١٩٤١ المدرسية أن البعث ينتهي الى كل هذا العبث ؟ من كان يحسب منا أن تصبح كلمة بعثي تهمة يدفعها بعضنا عنه بسخر مرّ ؟

من كان يظن منا ان يوماً يأتي نخجل فيه من ماضينا، نفر منه كذنب اقترفناه عن عمد فيلاحقنا في عيون البشر احتقاراً ، نكاد ننكر أنا كنا منه ، نخفي هويتنا . كانت خيلاؤنا به واعتزازنا، إذن، غروراً ؟

كانت التضحيات ، شبابنا الذي بعثرناه على دروب الشعب ، أحلامنا وإيماننا ، كل ذلك كان ، اذن ، عبثاً ؟

يكاد لا يصدق أحد أننا آمنا بقضية ، يصرون على أننا وشاة ، كتبة تقارير ، جلاّدون، قتلة ... يتهموننا بالخيانة . يذهبون الى ان كل ما قلناه كان انتهازية ورياءً، أننا أتقنا فن التمثيل حتى انطلى احتيالنا على الشعب . يطاردنا أنّى حللنا حقد البشر ، أغدقوه علينا حتى لات طاقة على الكره .

لم يثر البعث في بدايته حقد الناس عليه ، أثار حبّهم واحترامهم . الذين رأوا فينا بادرة خطرة، هم انفسهم، عاملونا بكثير من التقدير. ذلك أنهم وجدونا ظاهرة جديدة : جدية ، مثالية ، بعيدة عن الواقع ، أعجز من أن تصبح سياسية ، نلهو لهو أطفال بالمعتقدات ، لم يقدروا أننا كنا نلعب بالنار .

كانت رحلتنا الى الحكم سريعة ، قصيرة وخطرة . ما كنا نظن يوم بدأنا أن جيلنا يمسك بمقاليد الحكم ، فالذكي لا يصل أبداً. خلنا أننا طليعة

المؤمنين والشهادة . نذرنا أنفسنا لأمر عظيم ولكن مصير المنطقة وقدر شعبنا جعلا سيرنا عدواً . وجدنا أنفسنا على كراسي السلطة غرباء ، بعقلية جديدة ووسائل قديمة ، لا تجربة ولا إيديولوجية .

لهت القيادات عن رسالتها التاريخية لأنها لم تكن على قدّها فأوغلت في دوّامة الأحداث حتى بات البعث تنظيماً سياسياً . ظلت بذور الفكرة في أرض يباب لم تتعهدها يد أصيلة فتمرع وتخصب . فسرها كلّ على هداه ، أقلمها مع الظروف فما يعلم حتى المفكرون : ماركسية هي أم نازية ، كأنها أحجية ، رموزها قليلة ولكنها سر . ذابت بين تناحر التيارات العقائدية حتى لشك البشر بوجودها أصلا وبقدرة العربي على التعبير عن نفسه تعبيراً حضارياً، وإبداع نظام اجتماعي منبثق عن تكوينه الروحي .

بدأت لمحاً غامضاً وظلّت على غموضها . تقرأ آثار البعث فلا تجد إلا أدب مناسبات سياسية فيه قبس منها ، أما الشعلة فما زالت طيّ الوجدان القومي لم تشارف أعماقها موهبة حقيقية. كل ما قيل عنها حتى الان ليس سوى ادعاء ديماغوجي .

ظننّا ان عصور الانحطاط قد انتهت بسلفنا من السياسيين واننا بدء عظيم لحضارة جديدة ، فاذا نحن آخر آيات التخلف ، تعبير فاجع عنه .

اردنا ان نكون بعثاً للمناقب والبطولة فما بعث فينا — في الحكم — غير عصر المماليك . لم ننضج حتى نبرأ من المرحلة .

تبدو هذه الصورة قاسية تأثرت بظروف حياتي. وقد يظن أن الحقد هو الذي أملاها ، وكيف يمكن لي أن أحقد على البعث الذي هصرت شبابي على شعابه ؟ حينما اكتب عنه لا أصارع الحقد أبداً ، أقاوم الحب حتى اكون موضوعياً . ولكني لا انكر أن مرارة الخيبة تلونها ، فتبديها على شغف العاشق الذي تنكرت له ديار أمانيه فانكر فيها بعد غياب انها قفر من الحياة التي خفق قلبه لها .

لم يكن انهيار آمالنا شيئاً بسيطاً . كان يعني عندي موتاً حقيقياً ، أجتره ، أقتات منه القلق الوعر والحزن القاتل .

يجهل الذين رأونا في السلطة ، قليل من البعثيين أنفسهم يذكر أيامنا الأولى ، عذابنا والتضحيات. كنا فتية بعد والدنيا تتفتح حولنا ونتفتح معها فاغلقنا علينا كل أبواب الحياة ، نتلهف لأن نعيش كالبشر ونقسر أنفسنا على النسك . لم يلهنا متاع ولا شغفنا بلذات وكانت قريبة منا دانية. لم نعن بالثروة ولا شغلنا كل ما له علاقة بأنفسنا : مستقبلنا لم يكن يعتينا أبداً . كنا نعيش غباء المؤمنين .

عندما نذكر شبابنا تأكلنا الحسرة : لقد بعثرناه ، ذروناه على دروب الشعب وما كان فوق ذلك مجدياً . عندما كان ابناء جيلنا ، رفاق مقعد الدرس ، يعدون للثروة والحياة ، كان غبار الطريق يلتهم فتوتنا . كنا نعجب للباحثين عن شبابهم فيعيشونه ، نعتبرهم آثمين . مسرّاتنا كانت غريبة : درس نلقيه على طلاب صغار ، عضو جديد في الحزب ، حديث في قرية نائية مع الفلاحين ، وما كان اكرمهم وأصغاهم لنا وأصفى صداقتهم ...

هذه الذكريات لا تبيح لي ابداً ان ابصق بوجه شبابي ، أحب كل ثانية منه ، غير اني حزين من اجل حرمانه ، ما كان يجوز لي ان اجور عليه كل هذا الجور ، قسوتي عليه آتية من حبي له ، مداه على قدر مداها ولكني — واجهل كيف — لست نادماً . لو اني اولد مرة اخرى فأواجه نفس الشروط الانسانية وبيئتي ، لما اخترت لشبابي غير العذاب والغبار.

عندما اكتب عن البعث بعد هذه السنوات الطويلة من الآمال والخيبة لا بد لي من عناء كبير كي اتغلب على الحقد والحب . وأنا موقن ان اماني للتاريخ والفكر هي اكبر وأقدر من أن تبيح لي الاستسلام لعاطفة ، غير ان المرارة هي ميسم كهولتي ، تصبغ كل كل رؤاي ، نبع ريشتي وفني ، أسلوبي في التعبير ، لا تعني حبا ولا حقداً : إنها ذاتي العارية من الزيف .

لم يكتب — حسب ما اعلم [1] — أحد عن البعث موضوعياً .

---

[1] كتبت هذا الكتاب قبل اطلاعي على « التجربة المرة» للدكتور الرزاز ، ولم أجده الا بصعوبة .

كل ما لدينا عنه كتب رسمية صادرة عن قياداته تغفل الخطأ وتلح على ان تاريخه كان دائماً انتصارات ، خالياً من الضعف الانساني ، الآخرون هم المسؤولون عن هناته ، اما هو فبريء . كل ما قيل عن النقد الذاتي كان تبريراً .

وكتب عنه خصومه فاتهموه بكل الموبقات ، حمّلوه مسؤولية المرحلة ، جردوه من الخير كله .

اما انا فاني سأقول ما اعتقد ، كل ما اعتقد . ولذلك أقدر ان هذا الكتاب سيثير كثيرين ومنهم أصدقاء أحبهم . ولكني أرى — وأرجو لهم ان يفعلوا — انهم عندما يعودون لأنفسهم يجدون اني لا أظلم، بل أنقد نقداً موضوعياً راجياً منه النصح فالصلاح لا اللوم. ولا يعنيني أبداً ما يقال ، فلقد خلّفت ورائي المحاباة . سأقول عن نفسي كل ما اعرف مما له علاقة بهذا الكتاب ، كما يعترف مسيحي أمام كاهنه ، ففيه كثير من النقد الذاتي ، نوع من المذكرات .

لا تكفي صفحات هذا الكتاب حتى اقول كل ما اريد ، فلا بد من كتابين آخرين ، أحدهما يتناول عقيدة الحزب كما ولدت وكيف تطورت تحت تأثير الأحداث حتى باتت غير بعثية .

لقد بنى البعث العربي الاشتراكي كل بريقه على القضية الفلسطينية وانتهى به المطاف إلى أفدح وأذل هزيمة في التاريخ العربي عبر العصور. وأرى انه لم يتعلم من الدرس وهو يعد لما هو أذل وأفدح، فكان لا بد ايضاً من كتاب أنا في سبيلي لوضع نقطه الاخيرة على حروفه ، سيكون قريباً في متناول القراء تحت عنوان «من السفارة إلى السجن » .

كل ما كتب عن البعث حتى الآن تناول تاريخ القيادات ، لم يحط بمعركته الحقيقية البعيدة عن اضواء المسارح وكل الخلافات والانحلال الفوقي . قد يكون هذا البعد الرومانتيكي نفسه مسؤولا عما حصل من انشقاقات . كان الصف الثاني الذي انا منه لاهياً عن رأس الهرم مشغولا بما يحيط به عنه، ظاناً ان الامور تنتهي بعد حين

إلى ما يؤمل . لم يقف موقفاً حاسماً واذا بالخلل يتسرب سريعاً إلى القواعد فيحول البنيان المتين إلى خراب .

هذه المعركة كانت البعث الحقيقي ، المدى الذي وجدنا انفسنا فيه . كنا قريبين من ألم الجماهير ، يمنحنا انسانيتنا وصفاء العشاق ، كلما اقتربنا منه فعشناه احترقنا فتألقنا بجذوة عابدين .

عندما انفصلنا عنه أخذتنا ريح الشهوات فاذا بنا سياسيون غواة محترفون ، ضعنا في دوامة المرحلة وعهرها ، بين تناقض الانتهازية والايمان الذي انعكس على سلوكنا والقول فكان فيهما صدق كثير وزيف كثير .

لا أظن أحداً يستطيع الكتابة عن هذه الناحية الاساسية في حياة البعث الا الذين عاشوها . ولقد ترددوا حتى الآن، أما انا فالحبر يغريني كنشوة . لا قدرة لي على الصمت الأبدي .

منذ كنت صغيراً اكتب مذكرات بعضها لديّ وبعضها الآخر في بلدي، وما زال جزء منها في باريس . ولكن ما عندي منها يكفي كي يلقي الضوء على ما قدّمت .

لقد حالت ظروف حياتي دون نشر هذا الكتاب من ذي قبل . واني لاحمد لها ذلك ولو فعلت لجاء ناقصاً . كان يلح علي دائماً . إنه شعور بالواجب والارتباط العضوي مع اصدق مراحل حياتي واسخاها، ومع اولئك الذين وثقوا بي وهم فتية صغار ، فكنت مسؤولاً عن عثارهم وضلالهم وغربتهم في الحزب بشتى انشقاقاته .

كانت علاقتي بهم انسانية صوفية الملامح ، جديدة على مجتمعنا تنبو على ما تعارف عليه ، وشائج قربانا أمتن من الدم . تظل ذكريات مكتب الحزب بالقرية أجمل ما وعته ذاكرتنا تسمو بنا على كل ما تلى من خلافات في حياتنا .

اتهمني بعض منهم اتهامات فيها كثير من التوتر الذي بلغ الحقد ، بعض عن حسن نية وبعض عن انتهازية ، حتى إذا التقينا عاد بنا صفاء ايامنا الخالية فمسح سنوات دوّامة الانحراف التي جرفتنا مذاهب شتى .

قام بيننا عهد غير مكتوب على ان يحيط كل منا الآخرين بما قدّم واخّر. واخلوا هم بواجبهم وكتبت هذا الكتاب كأنه موعد أضربه معهم وحساب أؤديه لهم، يحررني من عناء الصمت والعهد، وقد يمكنهم من مواجهة انفسهم من جديد.

كانت تجربة البعث غنية وبائسة، غناها سبب بؤسها، شقاؤها انها أغدقت على المستقبل صور امل كبير حتى اذا اصبح ماضياً، لم، يرم ما عهدنا، انكفأنا على انفسنا، يدمي آمال فتوتنا يأس حاضر كهولتنا.

كانت تجربة نماها التمرد وعواطف ثرّة وحنين إلى عالم جديد، فشلها انها لم تحسن الانتظار، كان بريق السلطة خاطفاً وخطيراً فهوت حين ظن كثيرون انها في السمت، سقوطها هو في بعدها عن ينبوعها.

امام الأمل والفشل، الروعة والعري، حزمت امري بعد عناء نفسي طويل، وحوار داخلي وعر، وتردد جبان، على ان اتمرد على عواطفي وصلاتي فأعود إلى ينبوع قناعاتي.

لقد أثارت كتبي جميعاً الرأي العام العربي وكلفتني ما يجب ان تكلف الكاتب أفكاره، واقدر لهذا مصير ما سبقه. واني لسعيد بتحمل ما تمنحني المسؤولية من عذاب حتى لكأني أرفل بمسرات أزلية. وما معنى الكاتب الذي لا يشارك امته قدرها وعثاءه. إن من يشيح عن آلام الامة لا ينتسب إلى شرف الكلمة. إن الكلمة التي لا تعبر عن فكرة تنهش الصميم ليست سوى زيف. ليس كاتباً ابداً من لا يحمل صليبه في هذه المرحلة التي يمرغ فيها شعبنا في وحل الهزيمة وذلّ الكبت والاضطهاد.

لم تمرّ امتنا عبر تاريخها الطويل في ساعات مثل التي نعيشها. فهي على أحد طريقين: الموت او الحياة. لم تعرف امتنا لحظة تصبح فيها الكلمة سر الحياة او الموت. انها على حافة الدمار، ضالّة مضلّلة، يعصب عينيها ويعميها عن الخطر الدجل الغوغائي مستخدماً الآلة وتعددها وتنوعها اسوأ استخدام حتى ليحار الكاتب كيف يؤدي رسالته، يخشى ان يضيع صوته فلا يجدي فيثوب إلى نمطية القطيع

وضحالته . ولكن الكاتب الأصيل مؤمن برسالته مغرور بها يعتقد انّها الوحيدة الباقية : حرفه يهزّ فيزلزل الفساد والطغيان ، يتألق من دمه فينير . ان الكاتب الذي لا يتحدّى الانهيار عبر الألم والمشقّة والقهر لا ينتسب لشرف الأمة .

تساءل بعض لِمَ لم أبدِ ما كنت أخفي من قبل، وهذا اكبر تحدّ واجهته ، يحرجني فيخرجني ، يجرح كبريائي فأدور حوله كي أجد لي علّة أتعلّل بها حتى إذا حدقت بأزمتي تغلّب الصدق وطاقتي على الاعتراف بالذنب على كل شيء . وسأجيب دون تبصر بما يقول القراء والنقاد .

لقد لعبت الانتهازية دورها في صمتي، وأجدني في غنى عن شرح الحسرة التي يخلفها ترك المركز في النفس. ولا انكر القارىء أن ظروفي المادية كانت أساسية في ترددي : المرأة والطفل والبيت وميل طبيعي في الانسان الذي بلغ الكهولة إلى عيش الرخاء . إن مقارنة المرء بين ابنه المرفّه وبينما يمكن ان يؤول اليه إذا شاء ابوه ان يرضي وجدانه شيء صعب . لقد خبرت في حياتي تقلبات قلما واجهها إنسان آخر ، فعرفت الترف والفقر ، تظل صورهما في عينيّ متلازمة، كأن باب حياتي تطرقه دائماً يدان إحداهما بائسة والأخرى ثريّة تلحان في ان اختار بينهما فيعسر الانتقاء ولكني اخترت اخيراً . ولا اعني من ذلك اني اجد لي عذراً ، فمن عمل في السياسة وتحمّل مسؤوليات يجب ان يكون أقوى من كل ضعف بشري.

وفوق كل ذلك كانت السياسة طارئة في حياتي. ولو اني السياسي المحترف لما كنت أنا ولما عانيت هذه الأزمة .

ولكن ايتوني بالسياسي العربي الذي اعترف بخطأ من أخطائه : كلّهم انقياء طهرة ... هكذا يدعون ، معصومون كأنبياء لا يأتيهم الباطل من بين ايديهم ، يدلّون على من عداهم بحكمتهم وتبصّرهم وبصيرتهم حتى لنعجب من أين يجيء التدهور المخيف في أوضاع وطننا ، يصفقون لقول الحقيقة عندما تخدم مصالحهم أما اذا لم

تلائمها اعتبروها كذباً، مثلهم مثل الكاتب الذي ينحي على العرب انهم لا يموتون في سبيل القضية ويعيش مائة عام في نعيم ركاب السلطة .

عندما تركت السفارة جئت مصمماً ، وكان بوسعي ألا أجيء ، أن ألجأ إلى اكثر من دولة ولكني تحديت كل ظروفي واوضاعي ، ترفي وفقري وابنائي وحناني والحكم، لان شعب سورية كان يعذب فاخترت عذابه طريقاً لي . فقد الطاقة على المقاومة وخاف السجن ، أتيت أثبت له ان بعض الذين آمنوا بالبعث ما زالوا على وفائهم له ، رغم كرهه لنا والشقة التي تفصلنا عن قلبه ، وأن قلوبهم لا تخفق إلا على وجيبه وأنهم يقاسمونه المصير بشجاعة .

في السجن يئست من كل شيء وما زلت يائساً ، ولكني محنق غاضب على الظلام ثائر عليه . فيه انفصلت عن عالم الهزيمة . لقد ادى النزاع الداخلي البعيد الذي عمره سنون إلى ان ينضج في إيمان ان انتسابنا اليه حقيقة وواقع وان انسانيتنا لا تتحقق في قوقعته وانه يجب ان يزول بكل مؤسساته وقوانينه وشرائعه .

ان هزيمة حزيران هي تعبير عن هذا العالم الذي لا يمكن ان ينتصر فهو اناني مراء مهزوم في أعماقه لا وجود لأي نوع من انواع الإيمان فيه وللكفر افضل من ايمان نصف ، خادع مخدوع. ان الايمان اما ان يكون صوفيا او لا يكون. لقد رفضت هذا العالم رفضاً مطلقاً بكل اشكاله وطقوسه.

انا لست انسان مناسبات وفضائح ألهو باثارة القارئ وخياله : كان لا بد لي من تأمل حتى احزم امري على ما حزمته عليه . كل ما اكتب وأقول نابع من فكرة كلية ، تجعل مقاييسي مختلفة عن سواها ، نضجت عبر الألم والخيبة والسجن والتشرد وأجهد فوق ذلك ان أعمل ضمن خطة ومن أجل هدف .

كنت أول كاتب ، شرقياً أم غربياً، تنبأ بحرب تقع سنة ١٩٧٠ بين العرب واسرائيل (١) وجاءت كل الأحداث لتؤيد نظرتي وقد بدت

---

(١) « عرب ويهود » ، للمؤلف ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٦٨.

للقراء أولا انها ضرب من الخيال .

ظن العرب انها واقعة قبل ذلك ، يضللهم عن الواقع مر الهزيمة وتصميم على الثأر ولكنهم لم يصلوا بعد الى القدرة على تحديد زمن المعركة ومكانها ، أول شروط النصر ، فهم لم يسودوا قدرهم ، ما زالوا جزءاً من عالم الهزيمة وما زالت اسرائيل تمسك بمقاليد المبادرة . وأنا لا اريد ان أثبط همة أو أثني عزماً ولكني أحدق الى المشكلة بكلتا عينيّ دون عواطف أو ديماغوجية .

وظن الغربيون انها لن تقع وأن اسرائيل تكتفي بنصر ١٩٦٧ وأن الرأي العام العالمي رادع عن معركة رابعة ، ولكن سجل الثلاث السابقات يدحض هذا الوهم .

تنبأت ان اسرائيل سوف تكون البادئة قبل ان تكمل استعدادات العرب ، فلا تتيح لهم ان يميل ميزان القوى لمصلحتهم . ولقد دأب الإعلام العربي على الترديد أن العرب استعادوا قواهم ولكنها ما كانت غير نصف قوى اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ . وقد ازدادت هي قوة حين استعدنا قوانا ، أضف الى ذلك هيمنة الفوضى حين ينبغي التنسيق . كما انها باتت بحاجة الى ارض اخرى أمام سيل المهاجرين الذين يجيئونها خفافاً وسراعا خلافاً لما يدعي المسؤولون العرب. (١)

ولو اني نشرت ما انا في سبيلي اليه قبل أو بعد ما عولت لما اتى منه ثمر . لقد اخترت الزمن الذي أنبه فيه العرب وأنا موقن ان عالم الهزيمة لا

---

(١) نشرت الصحف يوم الأربعاء ٢٢ تموز ١٩٦٩ هذا الخبر في مكان متواضع : « القدس – أول تموز – (و ص ف) ستطلب اسرائيل قرضاً من يهود العالم بمبلغ ٣٤٥ مليون دولار ، لتأمين توطين المهاجرين الجدد الوافدين من الولايات المتحدة .
وأعلن ذلك الثلثاء أمام المجلس التنفيذي الصهيوني أريج دوكلين أمين صندوق الوكالة اليهودية الذي قال ان نسبة المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ستبلغ هذه السنة بين ٢٠ و ٢٣ بالمائة مقابل ١ و ٢ بالمائة خلال الفترة بين سنة ١٩٤٨ و ١٩٦٨ » .
ان حساباً بسيطاً لما يتطلبه سكان العائلة من هذا المبلغ فقط يعطينا فكرة عن الهجرة . ولا ننس ان يهود الولايات المتحدة كانوا قلما يأتون فلسطين .

يغفر لي، فهو لا يتقبل ثورة منعزل فرد . كتبي ممنوعة في اكثر الأقطار العربية، رجعية وتقدمية رجعية، يثبت المسؤولون فيها ان الفكر المتمرد هو ألد أعدائهم . والرجعي التقدمي اخطر على الحرية من الرجعي الرجعي .

وهنالك عامل اعتبره هاماً . في سفارتي كنت مجدياً . قدّرت ان بقائي في باريس ضروري وهي أهم بلد للدعوة لقضيتنا في العالم وأظن أني قمت فيها بواجبي .

لقد نبّهني كثيرون الى انني سأسحق ، وأنا رغم إحساسي بذلك أسير الى ما اريد مستهتراً بما يأتي به الغيب . فقد تجاوزت مرحلة التردد عسى ان يؤمن الذين بيني وبينهم عهد أني رغم شقة الزمن والمسافات وتقلبات الانواء وولوغي في مرحلة الهزيمة استطعت ان انفصل عنها أخيراً لأني ما زلت اردد أبيات ناظم حكمت : اذا لم احترق أنا وتحترق انت فكيف نخرج من الظلام الى النور .

دعني احترق حتى تحول جثتي رماداً .

نشوء البعث العربي

ارتبطت فكرة القومية العربية في الثلاثين سنة الأخيرة بالبعث ولا أعني انها بدعة منه او وقف عليه. ولكنه استطاع في مرحلة من حياته ان يكون بين الحركات الأخرى أقدرها على التعبير عنها وأوسعها مدى . ولا ننس انه نشأ في دمشق وطن العروبة ، مدينة الإشعاع العربي التي يتأثر العرب بكل ما جاء منها ، يرون فيه صدى الأصالة وأرستقراطية الفكر.

لست هنا في مجال البحث التاريخي عن عوامل نشوء فكرة القومية العربية وتطورها ، ولن أتطرق الا الى ما له علاقة مباشرة بنشأة الحزب.

ذهب كثيرون الى ان مؤسس البعث هو الأستاذ زكي الأرسوزي وآخرون الى انهما الاستاذان ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وتعصب لكل من الرأيين فريق من الحزبيين ودارت وما زالت تدور مناقشات حادة لا يعرفها الا القريبون من أوساط البعث. وقد يجهل الناس ان حركة ٢٣ شباط أحلّت الأستاذ الأرسوزي أباً روحياً للحزب بدل الأستاذ ميشيل عفلق ، تنفيذاً لخطة قديمة بعد تمهيد طويل بدأ قليلا بعد ٨آذار١٩٦٣. فلقد كان المدنيّ الوحيد الذي يزور القطعات العسكرية ويحاضر فيها بينما حجبت حجباً كاملا عن المدنيين القياديين في الحزب ، لأنه لم يكن منه خطر على دعامة الحكم الوحيدة : الجيش. فقد كان خارج التنظيم ، بلا طموح سياسي ، شيخا فانيا استغل الشباطيون عجز سنواته الأخيرة استغلالاً لا يمكن ان يغفره لهم أصدقاؤه الأولون ، أيقظوا فيه بقايا طموح الشاب على أثرة الشيخ وانتمائه الطائفي بعد ان قضى عمره ثائراً على الانتماءات المتخلفة. والراحلون عن الأرض يعودون بعد أن تنطفئ جذوة الثورة الى

النقطة التي بدأوا منها ، يمشون الى وراء .

كان حتى ٢٣ شباط رمزاً وأستاذاً لكل بعثي ، يجلونه ويأخذون عنه، يرون فيه سقراطهم ، فاذا بأكثرهم بعدها يشتمونه .

كانت بداية الحزب بسيطة وادعة صافية لا تنبئ بما تمخضت عنه، كأنها قصة نسجها خيال روائي . وهأنذا أرويها كما عشتها .

البعث هو وارث عصبة العمل القومي الى حد بعيد ، نواة تنظيمي الأستاذين الأرسوزي وعفلق الأولى من هذا الحزب .

كان القوميون العرب سنة ١٩٣٢ بلا تنظيم سياسي فاستطاعت العصبة بعد قيامها تلك السنة وخلال عمرها القصير الذي امتد بين ١٩٣٢ و١٩٤٠ أن تجمع شمل اكثر شباب سورية، حتى بلغت الانتسابات اليها رقماً كبيراً (بلغ على ما زعم لي احد قوادها في مدينة حمص ثمانية آلاف .)

حظيت حين قيامها بتأييد الكتلة الوطنية التي كانت مجموعة من الزعماء السياسيين تعتمد على تأييد مطلق من الشعب دون أطار سياسي واضح، فرأت في العصبة التنظيم الذي تعتمد عليه. ولكن أزمة فقدان اللواء ومعاهدة ١٩٣٦ أدت بالعصبة الى مواقف معارضة للكتلة أخذت عليها مبدأ « خذ وطالب » واشتد الخلاف حين ألفت هذه كتائب « الشباب الوطني او القمصان الحديدية » .

كانت العصبة تتخذ موقفاً سلبياً حازماً من الإنتداب امتنع المنتسبون اليها عن كل تعاون حتى التوظف وقاطعوا المجلس النيابي فقد كان عندهم نوع من التعاون. وأصيبت العصبة بعطب كبير حينما مات أمينها الأستاذ عبد الرزاق الدندشي وآخر حين قبل أمينها الثاني الأستاذ صبري العسلي بدخول المجلس النيابي ففصل من العضوية ، ولكنها استمرت وازدادت قوة بعد ذلك حتى جاءتها اقسى ضربةبانسحاب الأستاذ الأرسوزي الذي منحها خلال المرحلة الممتدة بين ١٩٣٣ ـــ ١٩٣٩ كثيراً من القوة أعني منذ انتسابه حتى انسحابه. بعد ذلك وفي بداية الحرب اوقفت نشاطها ثم حاولت ان تعود اليه سنة ١٩٥٤ فما نجحت .

كان الأرسوزي زعيم المقاومة العربية في لواء الإسكندرون ، قادها بإيمان وصبر وشجاعة ، أعطاها معنى صوفيا وطنيا واستقطب اعجاب وتأييد شباب سورية قاطبة وغدا رمزاً وطنياً . لمع اسمه كظاهرة جديدة تعبر عن مفاهيم أخرى غير مفاهيم الزعماء التقليديين التي آمن بها شعب سورية على انها مسلمات . كان هزة للقيم السياسية وبداية الشك بالأفكار والأساليب ، منطقاً مختلفاً لا يمت بنسب الى العادي المألوف ، أول من كشف عورات التخلّف وجاء للسياسة بتحليل متأثر بالثقافة والفكر الاوروبي .

بعد فقدان اللواء جاء فقطن دمشق وما عتم ان انسحب من العصبة مع عدد من الذين التفوا حوله. فقد وضح ان هنالك عقليتين ، احداهما من الماضي والأخرى من المستقبل . لم يكن تحرر العصبة كاملا ، لم ترفض بنية المجتمع القائم . وقليلا قليلا تلاشى بريقها وأدخلها قرار قيادتها الى عالم النسيان .

من يقرأ دستور العصبة يجد فيه بياناً جزلا ويلمح في التعبير ايماناً بالقومية مطلقاً ولكنه ما كان قادراً على ان يرضي النزعات الجديدة لدى مثقفي سورية الذين كانوا يبحثون جدياً عن اطار حزبي آخر لهم .

سنة ١٩٣٩ كنت طالباً في حلب . وردتني رسائل من رفاق عديدين من دمشق تشكو كلها الفراغ السياسي وتلح على ضرورة قيام حركة جديدة وبلغني ان اجتماعات كثيرة عقدت انتهت كلها اخيراً الى الفشل اهمها اجتماع عقده الأساتذة ميشيل قوزما ، زكي الارسوزي ، ميشيل عفلق ، صلاح الدين البيطار ، شاكر العاص ، أليس قندلفت ... قر الرأي فيه على انشاء منظمة ما عتمت ان انتهت بعد الاجتماع الأول .

ووردتني بعد ذلك رسالة تبشر بقيام حزب اسمه « الحزب القومي العربي » زعيمه زكي الارسوزي وتعتبرني منتسباً مؤسساً لأني حسب تعبير الصديق « تحمل نفس الأفكار وعندك الاستعداد للعمل » وفي الرسالة مبادئ الحزب .

الحزب القومي العربي . — رمزه : النمر .
١ — العرب أمة واحدة .
٢ — للعرب زعيم واحد يتجلى عن امكانيات الأمة العربية يمثلها ويعبر عنها اصدق تعبير .
٣ — العروبة : وجداننا القومي ، مصدر المقدسات ، عنه تنبثق المثل العليا وبالنسبة اليه تقدر قيم الأشياء .
— العربي سيد القدر .

يؤدي بنا تحليل هذه المبادئ البسيط السريع الى ادراك الرؤيا الحضارية التي نبعت منها والبون الشاسع بينها وبين المنظمات السابقة لها . هي اقفصال فكري نوعي عن مجتمعنا وتقييم جديد عليه للانسان. ولكن مرحلة التخلف تدفن في لجتها نزعات التمرد الثورية الحقيقية حتى لتبدو طيشاً طفولياً غير قادر على البقاء .

كلمات قليلة حاسمة ، يستطيع المنتسب ان يحفظها بيسر ويرددها ، صيغت بقالب جديد متين ، ظاهر فيه اثر الفكر الاوروبي ، كل كلمة تعني فكرة .

دأبت التكتلات التي ظهرت في سورية على مجانية الحزم في تسمياتها ، تختار ما غمض والتبس فتظل هويتها غائمة تحتمل التفسير فلا تصدم ، تفسح المجال لحيرة المتردد كي يخطو الخطوة اللازمة للانتساب، ولنقارن بين ما يعنيه اسم العصبة والحزب القومي العربي عصبة وليست حزباً ، جماعة مؤمنة بقضية قومية تعمل لها ، يؤلف بينها شعور عاطفي بالواجب أما هنا فالعلاقة عضوية تنظيمية الفرد فيه قومي عربي لا لبس ولا غموض؟

رمزه النمر : جرت الاحزاب ما بين الحربين وخلال الثانية على اختيار رمز مثير لخيال الناشئة ، تقليداً للنازية والفاشية مع ان العربي بعيد بطبعه عن الرموز الوثنية فهو حتى في جاهليته غير توتمي النزعة على عكس الشعوب الآرية ، والنازية هي عودة الى القبلية الجرمانية بروح حضارية جديدة تستلهم اشكالها الحديثة الأولى من طبيعة شعبها والرموز التي عبر بها عن نفسه بدائياً .

لم يختر الارسوزي الاسد، لأنه اقرب الى الرزانة والهدوء، وهوغير ثوري. أما النمر فهو اشد توثباً ، يذكر بعقاب عقبة بن نافع الذي لم يختر النسر .

العرب امة واحدة : لم يقل امة عربية واحدة . ذلك انه عرقي يؤمن بالأصالة والنبالة ، ارستقراطي النزعة والفكر . العرب عنده قوم ، الفردية فيهم نزعة انسانية اما الأمة فمزيج تضيع فيه ملامح الإنسان التي تسمو على قدر ما تصفو الأعراق .

يبدو على كثيرين قولي غريباً . ولكن العودة الى آثاره تثبت ما أقول. كان يعتبر نفسه ذروة التعبير عن هذا المنحى الذي لم يكن جديداً على العرب ، بل هو الطابع المميز للفكر والروح العربية بلغ اوجه في القرون الوسطى عند المتنبي والجاحظ ، وذهب الى انه أعطاه معناه الفلسفي الحضاري.

يقول الجاحظ في كتابه « البخلاء » عندما يتحدث عن العرب : «روي ان قوماً من العرب »، يقول روي لان الرواية قصر على المقدسات: الحديث والشعر والأنساب ، وقوماً لأنهم ذوو أرومة اليها ينتسبون .

أما اذا تحدث عن الفرس قال « حكي ان جماعة خراسانية » . حكي للتسلية ، جماعة (أي تجمع لا نسب له)، خراسانية نسبة للأرض ، لا أصل لها .

للعرب زعيم واحد : يعطي الارسوزي الزعامة معنى صوفياً متأثراً بنشأته العلوية . الزعيم ليس سياسياً فقط وإنما هو تجل انساني ، قمة فضائل الأمة يعبر عن كل طاقتها على العطاء الروحي والبطولي . انه صورة علمانية حديثة لإمام الزمان الذي يقتدى به بالصلاة ويطاع فيما يقضي فيه، فهو الحاكم السياسي الديني . الزعيم مبدع افكار ودولة .

العروبة : وجداننا القومي، انسانيتنا، نحن ... انبثقت عنه المقدسات ، الأمجاد والبطولة والدين ، الفكر والفن ، هي نحن الأصيلة المبدعة لعطائنا التاريخي الحضاري ، ينبوع القيم الخلقية .

قبل الارسوزي كانت كلمة العروبة تعني كل شيء ، خرج بها من التعريف الضحل الذي يعطيه العروبيون كل على هواه وحسب المناسبات فأعطاه هو المدى الفكري .

العربي سيد القدر او بالأحرى سيد قدره : كان اذا شرح معنى ذلك بدأ مستشهداً بالإنجيل قائلا : لا تسقط شعرة من رؤوسكم الا بامر أبيكم الذي في السموات .

في الوطن العربي ومنذ عهد بعيد وحتى الساعة ولا أدري حتى متى يرسم نهجنا السياسي ، افكارنا وسلوكنا خارج حدودنا ، لا اصالة في في الفكر ولا حرية في السياسة . خلافاتنا ومحاورنا ، عداوتنا وتحالفاتنا لا يمكن ان نفهمها الا اذا فسرناها بعامل اساسي هو التدخل الخارجي ، فكرنا قاصر يقتات من مائدة أجنبية لا أصالة فيه ، مسختنا القرون وقوالب الفكر الجاهزة الموروثة ، نحن ترديد هجين للغابر الجاف ، منطقنا لا حياة فيه يعبر عن شخصية مهلهلة مرقعة هي مزيج من الماضي الذي لم يتطور ومن تيارات لم تتجلّ عنا ، التصقت بمخلفات العصور دون ان تتفاعل معها فبتنا غريبين على الحضارة بل على الحياة فكان لزاماً على النخبة ان تحطم حتى تبني ، ان تضع الفأس على أصل الشجرة حتى تتحرر فتسود نفسها وقدرها .

كان على الحزب القومي العربي ان يبدأ من البدء ، ان يتحرر ويحرر ان يثور على كل ما توارثه المجتمع من افكار وتقاليد ، ان يرود الينابيع فيعود الى الأصالة النبيلة ليبني على قيمها الجاهلية مجتمعاً حضارياً جديداً حراً يبدع ويقرر .

كان الأرسوزي أرستقراطي النزعة يؤمن بالفروسية : الإشتراكية عنده هي تكافؤ الفرصة : المواطنون متساوون أحرار ، تبدأ ملكيتهم وثقافتهم من بدء متساو ، كل يربح على قدر ما ينتج ، المؤهلات هي مقياس التقدم، والمجتمع هو المجال الذي تتألق فيه الطاقات تستمد منه نسغ الحياة وتغنيه بابداعها ، مبرر وجوده الإبداع فهو أولا وآخراً في خدمة العبقرية لأنها أعلى اشكال العطاء الإنساني ، بل الغاية من وجود الإنسان على الأرض .

هذه المبادئ على قلة سطورها ، بذور نظرة شاملة ، ولكنها ظلّت مجرد بذور لم تلاق المدى الكامل من الشرح الذي يعطيها كل أبعادها .

ان فكرة البعث على اختلاف الأشكال التي جاءت بها هي في هذه السطور، ولكن الجرأة والمدى الفكري لم يتيسرا لقياداته فتشرح وتعلن صراحة عن مبادئها . جبنت أمام الصدق فدارت ولفّت حول الجمهور زلفى اليه وغلّفت مبادئها حتى المسخ فانحرفت عنها وانتهزت لأنها لم تكن قادرة على مجابهة التخلف .

لم يستمر نشاط الحزب الا قليلا. ذهب الارسوزي سنة ١٩٣٩—١٩٤٠ معلّماً الى العراق يمني النفس بغزو قومي. فقد كان هذا البلد يستقطب آمال شباب العرب جميعاً وعاد بعد أقل من عام صاخباً شاتماً يتهم القائمين على الحكم بالعمالة وقتل الملك غازي الذي رأينا فيه بطلا منقذاً .

كان الشباب في سورية يتصلون، بعضهم ببعض، يبحثون عن طريق للخلاص، والظروف الدولية قاسية والمحلية أقسى : آلت المعاهدة السورية الفرنسية الى الفشل ، سلخ اللواء وأعلنت حرب عالمية والعرب خارطة بلا جدوى ، كأنها يباب لا بشر فيها .

نشأت في تلك الفترة تنظيمات حزبية محلية ، كلها تدعو للقومية العربية لا تخرج عن نطاق العصبة الا قليلا ، اكثرها له صبغة اشتراكية . بات التنظيم حاجة وطنية انسانية ، مقاومة لخوف جماعي ، تأكيداً للوجود .

سنة ١٩٤٠ قدمت دمشق طالباً في الجامعة وتعرفت في اليوم الثاني لوصولي الى زكي الارسوزي . كان رائع الحديث شاعراً يتألق صوراً ، سخي التشبيه والسخر، لاذع النكتة، تنقلب المفاهيم والرؤيا السياسية والاجتماعية على يد حديثه مرة واحدة . أذكر أنه حدثنا يومئذ عن نيتشه ومراحل العقل الثلاث . كان جميل الوجه أنيقاً، وديع المظهر ، حتى اذا تكلم بدا ثائراً متوحشاً تلتمع عيناه الخضراوان الواسعتان ببريق كاسر هدام كأنه قد من ثورة .

لا يستطيع من عرف الارسوزي فيما بعد ان يدرك أو يحيط بالصورة التي قدمت، أعني بعد أن حال الى فيلسوف رواقيّ ساخر ، ثم الى جسم مهدم احتفظ حتى موته باللمعة الشاعرة الصافية .

كان يلح على ضرورة تأسيس حزب . واجتمعنا يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٠ . كنا ستة فقط في غرفة صغيرة يقطنها الأستاذ عبد الحليم قدور (الطالب يومها في معهد الحقوق) . ألقى علينا محاضرة عن الديمقراطية والشيوعية والنازية استمرت اربع ساعات متصلة تحرك فيها في الأعماق ، كان بعيداً عن السطح كأنما لا وجود له على الأرض. حاراً عاطفياً ، بدأ من ديكارت وانتهى بتشمبرلين: كان في ساعات الضيق غنياً . انتهى من الحديث الى القول : « يوم ذكرى سلخ اللواء أحزن فأتفاءل ، يحفزني الألم للعمل فانهد اليه. أرى ان نؤسس حزباً «ونسميه البعث العربي.» واقترح ان يقسم التنظيم الى قسمين : سياسي وثقافي. وأقسمنا اليمين ببساطة دون أية شكليات كأننا نتم حديثنا، وخرجنا من البيت حوالي الحادية عشرة فوجدنا الجارة كئيبة السحنة. وفهمت ثاني يوم أنها ازعجها أن يجلس أربعة على السرير الهزيل .

ولي الأستاذ عبد الحليم قدّور أمانة سرّ الفرع السياسي لأنه « ألمعنا وأقوانا حلساً سياسياً » ويحي السوقي أمانة الفرع الثقافي لأنه : «اكثرنا جداً في قراءاته » ونسي ان يتنبأ أنه أول من هوى منا بانهيار عصبي . زرته في مرضه . كان يهذي . لم يذكرني حتى اذا ضحكت ، تذكر ضحكتي العالية .

كانت مسؤولياتي « كبيرة » : تأمين الارتباط بين الفرعين ، الاشراف على حلقات التجهيز الاولى وأمانة المالية. وجمعت بين انتسابات واشتراكات أربعا وعشرين ليرة، فاشترينا كرسياً عالياً للأستاذ وكراسي واطئة كلها من القش للأعضاء .

كان البيت صغيراً بائساً سكنه الأستاذ مع مجموعة من الطلاب اللاجئين من لواء اسكندرونة، أول قافلة من اللاجئين العرب ، يمرغهم الشقاء في أسن الفاقة فيعتلون عليه بتفاؤل عجيب. كنا نضحك من القلب، نحزن من القلب ونحلم بأمجاد تاريخية وبأكاليل المنقذين لا يعنينا ان تكون غاراً او شوكاً . كتب صدقي اسماعيل بالقلم الرصاص على الحائط : نعيش هنا تحت ظل راية الوحدة العربية .

كنا نحيا بهذا الامل ، غرباء عن مجتمعنا ، يضيق علينا العزلة شيئاً فشيئاً : عصاة تمردنا على كل القيم القديمة ، أعداء لكل ما تعارف عليه البشر ، ألحدنا بكل الطقوس والعلاقات والأديان . بحثنا عن المعركة في كل مكان . كنا معولا شرساً . اضطهدنا المجتمع فتحديناه وأخذنا نهدم بكثير من الذكاء والغباء كل المؤسسات ، أطفالا يكبرون فيزدادون مع الزمن طفولة .

لم نسلم من حملات الآخرين : بأننا ضد الزعماء دون تمييز بين خائن ومخلص وأقل اخلاصاً، وكان ذلك صحيحاً . كنا نراهم على اختلاف فرديتهم تعبيراً عن عشائرية لا تعيش دولة المستقبل العربي الا اذا زالت حتى انقاضها. وكان في احكامنا عنف كثير يضللنا في كثير من التفاصيل ، مطلقة نرى الجهل والغفلة خيانة ما دامت نتائجها متساوية .

اتهمنا بالالحاد وكان ذلك صحيحاً أيضاً رغم كل ما زعم البعثيون فيما بعد من مزاعم التبرير ، نؤمن بالشعور الديني ، بصوفيّة الأديان ونزعتها الكلية الانسانية، اما دين الآخرين فقد كنا ضده .

كنا عرقيين معجبين بالنازية نقرأ كتبها ومنابع فكرها وخاصة نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) وفيخته (خطابات الى الأمة الألمانية) وهـ . ا . تشمبرلين (نشوء القرن التاسع عشر) وداره (العرق). وكنا أول من فكر بترجمة (كفاحي) . (١)

من عاش تلك الفترة في دمشق يقدر ميل الشعب العربي الى النازية فقد كانت القوة التي تأخذ بثاراته. والمهزوم يحب المنتصر بطبيعته ولكنا كنا مذهباً آخر. وقد يضل من يقرأ فلا يتعمق مبادئ الحزب القومي العربي التي أصبحت مبادئ البعث العربي هي هي .

كنا مثاليين نقيم علاقة المجتمع على الحب . كان الأستاذ يتحدث كثيراً عن المسيح وأظنه تأثر بكتاب نيتشه « منشأ التراجيديا اليونانية »

---

(١) من غرائب الصدف اني كنت ابحث عن « اسطورة القرن العشرين » لروزنبرغ فلم اجد في دمشق الا نسخة بالفرنسية لموجز عنه عند الأستاذ ميشيل عفلق استعرتها من احد تلاميذه.

يرى الجاهلية مثله الأعلى، يسميها المرحلة العربية الذهبية، يذهب مثل نيتشه الى ان سقراط بداية المنطق والدياليكتيك التي افسدت عفوية اليونان، وفي « الكلام » انحطاط العرب. بل ذهب الى أبعد فتبنى ما كان جاهلياً في الإسلام فقط . كان انسان الرفض ورفضنا معه .

ناقشته سنة ١٩٤٦ بالقرآن فعاب علي نزعتي الدينية قائلا : « انت راهب في ثياب ثوري » . اعترضت قائلا : « ان الايمان بالأفكار هو ديني الملامح » فأجاب : « ان الثورة نفسها ايمان صوفي ». وجدت في الحديث الى انه لم يقرأ حتى ئذ القرآن قراءة جدية، حتى اذا فعل فيما بعد تبدل كثير من افكاره . وقد لا يعلم كثيرون انه بدأ يدرس العربية سنة ١٩٤٠ . كان يفضل الحديث قبل ذلك بالفرنسية .

كنا نقرأ ونكتب ونترجم . سبق تأسيس المكتبة الجماعية الحزب . كنا لا نستطيع شراء كتب كثيرة فعمدنا الى جمع ما لدينا في دار الأستاذ فكانت لنا مكتبة ملأت رف النافذة الصغيرة المطلة على الشارع . سرق منها كتاب فأقمنا الدنيا وأقعدناها، واتهمنا الاستعمار بالتآمر على المستقبل العربي .

كانت الاوضاع تتطور تطوراً سريعاً في المنطقة، خاصة بعد ان احتل الالمان جزيرة كريت في آب سنة ١٩٤٠ . قدمت بعد ذلك لجنة الهدنة الايطالية الالمانية الى سورية كي تتسلم مقدراتها .

في منتصف آذار سنة ١٩٤١ جاءني زائر يقول لي : « ان سعدي الكيلاني يريد ان يراك ويفضل ان يرى الاستاذ الارسوزي في المكان الذي يرتأيه . بلغت الاستاذ واتفقنا على موعد . قال له الكيلاني : « سمع بك رئيس لجنة الهدنة الالمانية الايطالية وهو يعلم تاريخ نضالك في اللواء ويود أن يراك . »

فأجاب الاستاذ : « أفضل ان اعلم منك الغاية من المقابلة . »

قال : « انه يريد التعاون معك وهو يعرف انك اسست حزباً يعتقد انه على صغره مليء بالوعد ، قادر اذا دعم على تبديل الوضع الشعبي في في سورية وبالتالي الوضع السياسي في المنطقة . »

قال : « انا لا أتعاون مع احد. أفضل ان نسير على أقدامنا وحيدين . »
عندما خرجنا من الاجتماع قلت له : « الا ترى اننا ضيعنا فرصة نادرة ؟ » أجاب : « هل جننت ؟ الانكليز يحيطون بسورية من كل جانب ، سيحتلونها قريباً، فهل تريد ان تعلّق مشانقنا دون جدوى للشعب، كخونة ؟ »
لم أفهم آنئذ، فقد كانت كل البوادر تدل على ان المانيا لا تغلب.
عندما قام رشيد عالي الكيلاني بثورته في العراق جن جنونه واتهمه بالخيانة . كان يرى انه لا يجوز قيام حركة ضد الحلفاء في بلاد العرب قبل وصول الالمان الى طوروس . كان الخطأ في اختيار الزمن . قبول التحدي والرد الغوغائي عليه هو دخول في مخططات الاستعمار وتنفيذ لها وأضاف: « اذا ذهب الحمار الى المزود ما يعنيه اذا ركبته سوياً فأمسكت بالرسن ام مقلوباً فقبضت على الذنب ؟ المهم ان يأكل الشعير ! »
تنبأ لحركة الكيلاني بفشل سريع فقد كان عليه ان يختار زمن ومكان المعركة : ان يسود القدر . وحصل ما توقع فلم تثبت الحركة الا اقل من شهرين . بدأت في ١ نيسان ١٩٤١ وانتهت في الحادي والعشرين من ايار . كان رغم ضلاله بالتفاصيل صادق الحدس .
بلغ عدد الاعضاء في الجامعة إثنا عشر وما تجاوزه فيما بعد أبداً ، غير أن غربتنا كانت تزداد يوماً بعد يوم . في التجهيز الاولى كان عددنا اكبر قليلا .
عندما هاجم الانكليز سورية في ٨ حزيران ١٩٤١ وحوصرت دمشق فانفصل الجنوب عن الشمال، نفته السلطات الفيشية عنها وأجبر على السير على الاقدام من مصياف الى تل كلخ وهناك أطلق سراحه .
وزعنا بيانا عنيفاً في الليل والاحكام العرفية قائمة والمدافع تلقي قنابلها على قاسيون، فقبض على ثلاثة منا فكانوا اول بعثيين دخلوا السجن، وفر الباقون .
استأنفنا النشاط سنة ١٩٤٢ وعدد الأعضاء ينخفض احياناً ثم يعود الى ما كان عليه. كانت تلك السنة قاسية الى حد لا يتصوره العقل : فقر

لا يحتمل ولا يطاق والمغريات كثيرة . كنا نغافل الاستاذ فنضع في جيبه ما نوفره من الاكل لانها كانت دائماً خاوية . نصوم لان رفاقنا اصحاب بيته أتقنوا فن البؤس والصبر ودلّونا على مسالكهما الشقية الغنيّة وأخذت تهترئ ثياب الاستاذ سريعاً .

ذات مساء دعانا صديق للعشاء واذا به يقول : « كنت مصمماً على كتابة آرائي سريعاً والانتحار ، ولكني كلما عزمت وجدتني بينكم فتفاءلت وتعلقت بالحياة . »

اخذ الشقاء يدمر حياته . كان متوتر الاعصاب يقضم نفسه . وبدأ الشك يسيطر على منطقه حتى غدا مرض اضطهاد : كل من حوله جاسوس . نحن تلاميذه لم نسلم من نقده اللاذع . وانتقل توتّره وشكّه الينا وبات الحزب مجموعة من الفوضويين تفكيرهم موحد ولهم نفس المنطق ، تعليلهم للأحداث يكاد يكون واحداً ، لا يثقون بأحد ، يحبون الشعب ويكرهون الافراد ، يقدسون الكل ويحقدون على الأجزاء .

سنة ١٩٤٤ تفرقنا ، تخرج بعض منا من الجامعة فنهدنا الى رحلة عجيبة ، شباب مثقف قرأ كثيراً ، موهوب عنيد ، فقراء تعلمنا السخر من فقرنا وانفصلنا عن الماضي كله لنبني عالمنا الذي حلمنا به سنوات اربع او تزيد ، خلفنا وراءنا كل رغبة غير تعلقنا بالمثل ، عشق هوى بل هوس .

ذهب الاستاذ الى اللاذقية فسكن فيها قليلا ثم الى طرطوس . كان ينتقل من بؤس الى شقاء . هناك مرضت أمه وعادها الطبيب فكتب الوصفة وانقضى يومان ماتت بعدهما دون ان تتناول الدواء .

كأني بزكي انهى بهذه الحادثة حياته السياسية وانقطع للتأليف والتدريس . ان موت ام بلا دواء ، يحسم بين الخيال والواقع ، ينبه الى ان الارض ليست وطناً للوهم .

سنة ١٩٤١ التقيت بأحد اصدقائي فناولني بياناً مطبوعاً على الحجر يحمل توقيع البعث العربي . أخذته للاستاذ زكي فلما قرأه قال : « بدأت دسائس الاستعمار . انه يقطع علينا الطريق الى الشعب بحركة تحمل اسمنا

نفسه . » من يقرأ البيان يجد اسلوبنا نفسه . أخذنا نبحث عن الأمر .

في تلك الفترة اسس الاستاذان ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار حزباً حمل في البدء اسم البعث تارة، والإحياء أخرى. ولا ننس ان الكلمتين تعنيان نفس الشيء . كانت الحركتان متشابهتين متماثلتين . كل رفاقنا (قد اكون والاستاذ محسن شيشكلي الاستثناء الوحيد) كانوا تلاميذ الاستاذين عفلق والبيطار على مقاعد الدرس . كان أعضاء بعثهما يترددون بين حين وآخر على الاستاذ الارسوزي ويحتملون لاذع نقده وسخره .

تكويننا العقلي كان واحداً : بعثان افترقا .

عند قيام حركة رشيد عالي الكيلاني برز الإحياء الى عالم الوجود باسم نصرة العراق وقاد موجة الحماس وعمل على ارسال المتطوعين الى بغداد وتبادل البعثان النقد وخف الايمان بالاستاذ الارسوزي . بدأ الاعضاء يشكون بقدرته العملية حتى من وثق منهم بفكره، فقد صدمهم كما صدم الرأي العام بنبوءته بفشل الكيلاني، وهو لا يغفر لمن يدله على اخطائه وعوراته خاصة في الظروف الحرجة .

استطاع الإحياء ان ينبه لوجوده في اكثر من مناسبة . في انتخابات ١٩٤٣ رشح الاستاذ عفلق نفسه فصوّت له ١٤٥ ناخباً ثانوياً ، اي اكثر من عدد اعضاء الحزب آنئذ .

لم يكن الاستاذ عفلق مجهولا في دمشق فقد عرفته استاذاً وكاتباً أديباً قرأته في مجلة الطريق الشيوعية وفي جريدة الايام وباتت الحركة موضع التساؤل تحظى بالاحترام والتشجيع. رأت فيها دمشق جديداً يعبر عن كثير من امانيها . لم يكن طابعها الاشتراكي واضحاً . أخذها الرأي العام على انها قومية بريئة من مطامع السياسيين ، جريئة الفكر تؤمن بما تدعي وتحققه عملا .

منذ ١٩٣٦ بدأت الاوساط الشعبية المثقفة تشك بامكان الكتلة الوطنية على ان تكون حركة مستقبل ، رأت فيها حركة مقاومة للاحتلال ، التفت حولها من أجل هذه الغاية. وقد استطاع رجالها استقطاب الرأي العام خلال

أعوام الكفاح التي بدأت مع القرن العشرين وحملت اسماء شتى ثم تبلورت في الكتلة التي هي حصيلة كل المنظمات التي ظهرت ابان الاحتلال التركي ثم الفرنسي .

لم يتخل الشعب عنها لان المعركة ما كانت تطيق التوقف عند الايديولوجيات والمفاضلة . رأى ضرورة الاستمرار العنيد ولكنه لم يكن ضيق النظر . وشعب سورية ذكي قوي الحدس اوسع صدره للجيل الصاعد واحترم وعداً بالمستقبل دون ان يتخلى عن معركة الحاضر .

كان الرئيس المرحوم شكري القوتلي آنئذ السلطة العليا المطلقة . قبل ان يعلن قائمته الانتخابية ذهب الاستاذ عفلق على رأس وفد من شباب الحزب الجديد اليه في شبه مظاهرة والقى كلمة طلب فيها ان يكون مرشحاً في تلك القائمة .

أجهل كيف اتخذ الحزب آنئذ قراره . فلم اكن قريباً من البعث الآخر ولكن البادرة لم تكن مشجعة ووجهنا انتقادات مرة للأستاذ عفلق . كنا نوعاً من الخوارج لا نقبل هدنة او تعاملا مع جيل الكتلة الوطنية، نتهمه بأقذع التهم . غير ان نتائج الانتخابات عملياً جعلت من مجموعة المتمردين الصغيرة واقعاً سياسياً .

عندما انفرط عقد جماعة زكي الارسوزي وباتوا بلا رباط يجمعهم انضم من بقي منهم في الجامعة والتجهيز الاولى الى التنظيم الذي يقوده الاستاذان عفلق والبيطار ، فأصبح المعبر الوحيد عن فكرة القومية العربية في دمشق . وأخذت الطليعة تنضم اليه وهو يشق طريقه بين تيارات مختلفة تتنازع الساحة السياسية من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، وكلها اما تنظيم لا قومي (كالشيوعيين والاخوان المسلمين) او تجمعات (كالكتلة والمعارضة) سياسية غير واضحة البنية الايديولوجية .

البدايات

رغم مظاهر التنظيم الدقيق الذي أحيط بها الحزب في أيامه الأولى، فقد بدأ فوضوياً قام نجاحه على عفوية الأعضاء واندفاعهم العاطفي . نظامه الداخلي الحالي لم يقم حتى سنة ١٩٥٧ . كانت طليعته كتاباً وأدباء حتى ليظن المراقب الدقيق اننا كنا ننظم شعراً : كان العمل الشعبي قصيدة ولقد نظمناها جيداً .

الشخصيتان اللتان لعبتا فيه الدور الأساسي هما الاستاذان الارسوزي وعفلق . كانا دائماً على خلاف، ولكن رؤيتهما ومزاجهما انعكسا على الحزب في دقائق سلوك الأعضاء .

لم يكن الارسوزي في الحزب ولكنه كان دائماً موجوداً فيه ، نزقه ، أمثلته ، صور سخره الشاعرة، تنعقد اينما جلس حوله ندوة من البعثيين. اما الاستاذ عفلق فقد منح الحزب كثيراً من رومانتيكيته الضرورية لكل بدء ، ووسمه بطابعه الفكري وتعقيده .

رأيته اول مرة في شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٠ . كنت أتقدم لفحص البكلوريا وكان في لجنة التاريخ والجغرافيا . لم يكن جديداً علي فقد قرأت له قصصاً قصيرة بارعة ثرة البيان : سندباد (مسرحية من فصلين صغيرين) تضعه في مستوى الكتاب العظام ، تقفز به بعيداً عن كتابنا . ذهب كثيرون الى انها نقل عن اندره جيد ، نقل التلميذ الذكي ، ذلك ان شعورهم بمركب النقص العربي لا يمكن من رؤية الومضة الفنية . ارى انها افتراق عن جيد ، فيها اثر من نيتشه في مسوح شرقية حالمة ، لمسات فنان أصيل ينزع الى الرحيل عن ارض الفن ، يعاني ازمة الفرار

من ابداعه ، لم تحتمل قواه روعة الفنان فاختار السياسة ناجياً بضعفه اليها . قصيدته « عصفي يا رياح » من روائع الشعر العربي تنبض بالصوفيّة والالوان ، تنبىء كما يخيل لي ان طموح الشاعر بعيد عن القوافي والاوزان.

كنت أتصوره من مقالاته من قبل واعظاً يتحدث كثيراً فوجدته صامتاً لم يتدخل في الاسئلة والأجوبة الا حين تطرّقت للصوفية في شعر الباطنيين (كان السؤال عن الطوائف الباطنية) وحين وصفت لوحة أجراس المساء لمانيه « L'angelus » ، قال : «ماذا تحب بها ؟» قلت: «غموض انتشار النور ... » فابتسم ابتسامة حزينة كئيبة وعاد الى صمته.

كلما ازددت معرفة به، استغربت كيف تمكن على هذه الموهبة من ان يكون سياسياً . كيف قدر على خنقها ؟

سمعته يعلّق ، بطيء الحديث مملّه حيناً ، مشعاً حيناً آخر ، على «الجبل السحري» لتوماس مان ، ويحلل «بروست» ، فكان كأنه يؤلف رواية . اظن اكثر الكتاب تأثيراً فيه‌هما نيتشه وأندره جيد. منحه الاول الثورة، والثاني الأسلوب ، وغذّيا فيه القلق الذي وسم حياته السياسية بالتأرجح والتردد .

في سلوكه طيب الفنان وعصبيته وقرفه وسوء ظنه ، يصدق ما يقال له اذا جاءه من تلاميذه ويغريه المديح ويخدعه الرياء . عندما كثر حوله المراوؤن وقع في أخطاء عديدة جسيمة . فيه براءة طفولة وحرص شيخ ، شخصيته متناقضة عقّدها انه قوي وضعيف . وهو الى ذلك عنيد يتشبث برأيه الا اذا عرف محدثه كيف يدخل الى قلبه فيستسلم وينسى ويحب . اذا اهين حقد ولكم أهانه الحزبيون !

كسول في مظهره الخارجي ، حياته الداخلية غنية . كان الحزب تعبيراً عن انسانيته فتجلّت منذ الأيام الأولى فيه مواهبه وضعفه .

في طبيعة الفنان عزوف عن الواقع ، رحيل الى أرض لا وجود لها الا في صوره ، فيها كل انفصاله عن حياة القطيع ، هي عالم مثله . أراد الاستاذ عفلق ان يحققها عملا ، غير ان التخلف يبتلع الرؤى الجميلة ، يمرغها في وحل غبي : ذلك هو تناقض ميشيل عفلق الذي قتل الفنان

ولم ينقذ السياسي .

كان الحزب عنده خلقاً فنياً حل محل القصة والقصيدة ، اراده روايته او ملحمته الخالدة فأحبه كما يحب الفنان أبناءه وروائعه . في جملته حنان ومدى، وفي لفظه وشي منمّق دون صنعة. فودّ لو يكون الحزب لوحة رسام، غير ان الألوان جاءت محرورة، فحقد عليه أحياناً على قدر حبه له .

لم يكتمل ميشيل عفلق الكاتب ، نهد وما زال جنينا في تعبيره الى البشر، مخلفاً وراءه الحبر . أجهض الفنان في ذاته كي يعيش في الحزب وقلّما يقاوم طرح مرّ الواقع . ان الفنان معذب عندما يغادر أرض ابداعه. ما قابلت الاستاذ عفلق الا وألحيت عليه بالعودة الى الفنان : أذكر أني قلت له مرة : « لن يبقى ميشيل عفلق عضو المجلس الوطني في التاريخ أما الكاتب فخالد . » كنت ألمس عنده هذه الرغبة ، يمني نفسه بهلوء قليل كي يعود اليها، غير ان الخلافات والانحرافات كانت تمتص قدرته على الرجوع. وهنالك عامل أهم هو كسله، فوجد بتلك تعللا يقنع به. أظنه يعاني دائماً تبكيت ضمير المبدع الذي خان صوره في حزب . كنت أقول عنه دائماً : لقد انتحر ميشيل عفلق في البعث العربي الاشتراكي .

أعطيت هذه الصورة عن الأستاذ ميشيل كي يأخذ القارئ فكرة عما كان عليه الحزب في فترة قيامه . ان قائد منظمة ما يعطيها الكثير من شخصيته. وقد ألح هو على ان يعطيه كل شخصيته فيكون على صورته ومثاله ، ابناً حبيباً يعيش ببركته ويسترشد برأيه ونصحه ، يخطئ معه ويرشد معه ، يحزم ويتردد معه . ودّ ان يكون الحزب بضعة منه ، خير أبنائه ، براً بأبيه يتحمل مسؤولية خطأه ويبررها ، يحيط أباه بالحدب والعطف، وأظن ان الاستاذ عفلق كان دائماً بحاجة اليهما .

سنة ١٩٤٥ اتصل بي رفاقي تلاميذ الارسوزي يطلبون مني ان انضم للبعث العربي بعد ان انتهى بعثنا وترك الاستاذ الارسوزي العمل السياسي . أذكر جواباً قلته يومئذ لاحد رفاقي : « انا لا أنتسب لحزب يحمل جنازته بيده. » لم أكن أعلم آنئذ أن يأتي يوم يحمل فيه الحزب جنازة الشعب ومناقبه.

في اواخر تلك السنة اتصلت بالاستاذ الارسوزي وجهدت في اقناعه بضرورة العمل فرفض نهائياً. كان مؤمناً ايماناً مطلقاً بعدم جدوى المرحلة، يرى ان النخبة مكرهة على العزلة وأن السياسة تجرها حتماً الى حمأة الخيانة ، شاءت أم أبت ، في دوامتها لان قوانا أقصر عن ان تسود قدرها.

في ٨ آذار سنة ١٩٤٦ انتسبت رسمياً للبعث العربي . كنت آخر المنضمين من البعث الاول الى البعث الثاني . لا اعني من ذلك اني كنت عديم النشاط ، اذ كنا نجد الانتساب شكلياً . كنت أتصل وأعد وأتعاون مع الحزبيين فقد كان الحزب حركة عفوية ، شعوراً بالواجب القومي وايماناً بمعركة . منذ فتحت عيادة جمعت حولي بعضاً من الطلاب واصدقاء الطفولة وأخذت ألقنهم مبادئ المجتمع الجديد ومقوماته . افتتحت نادياً باسم « نادي الصحراء » وأخذت أعلّم كثيراً . استطاع هذا النادي المتواضع ان يخرج خلال سنتين عدداً من حملة البكلوريا والبروفه والسرتفيكا، ولكن عدد المنتسبين للحزب كان ثلاثة بما فيهم أنا حتى سنة ١٩٤٧ . كان يرتفع هذا الرقم في العطلة الصيفية حينما يثوب الطلاب من مدارسهم، ثم يرجع شتاءً الى ما كان عليه .

كان يلومني الحزبيون ، يرون الرقم صغيراً . سنة ١٩٤٩ انتسب للحزب خلال شهر ستون عضواً من تلاميذي . كنت اهتم بالنواه اريدها جدية راسخة في مفاهيمها، تتطور تطوراً بطيئاً متيناً . سنة ١٩٥٢ أصبح عددنا حوالي ٥٠٠ ، وسنة ١٩٥٤ وبعد دمج البعث العربي الاشتراكي تجاوز الرقم ٢٥٠٠ . وقد يظن القارئ انه عدد انتخابي غير عقائدي، ولكن النواة الاولى استطاعت بالحاحها وصبرها ان تجعله مجدياً منظماً مؤمناً بشعاراتنا .

كان العمل الحزبي حياتنا كلها . كرسنا له عقلنا كله وقلبنا كله . كان اغراء حياتنا . لو اردت ان أعطي أمثلة عن تضحية الاعضاء وحبهم وايمانهم لكتبت كتباً كثيرة .

اذكر ان احد الاعضاء رأى اني كلفت رفاقه بالقيام بجولات ولم أكلفه لاعتقادي انه غير قادر فخرج من البلدة ماشياً وما آب اليها الا بعد

سبعة عشر يوماً . كان يدخل الى القرية فيدعو الى اجتماع يأتيه القرويون كي يضحكوا من هذا الطفل النادر فيبدأ يخطب فيهم أو يحدثهم ساعات حتى اذا دعوه الى غداء رفض وارتضى خبزة مع قليل من زاد يأكله وهو سائر على قدميه فتمر سيارة او راكب أو عربة يستعين بها الى قرية أخرى. وعلمت فيما بعد انه حفظ عن ظهر قلب كل محاضراتي وخطاباتي يلقي منها ما يناسب المقام . كان عمره خمسة عشر عاماً . أورد هذه الصورة الصغيرة من تجربتي لأنها صورة نشوء البعث في كل فروعه : مدرسة ثم حزب واندفاع عاطفي وتسابق الى دعوة الشعب .

اتخذنا الناس على اننا معلمون، أحبونا كما أحببناهم. أخذنا نهز من الجذور كل تقاليدهم وعاداتهم وعلاقتهم بالماضي . جابهناهم بواقعهم دون حذر أو تردد أو خوف فاعتبرونا خارجين على المجتمع. ولقد كنا خوارج على الشرائع التي تعارفوا عليها فنسفناها لانها ما عادت من الحياة ، ثرنا على الموت كله .

لم يتقبلونا في البدء . اعتبرونا تهديداً لمقدساتهم، كفرة بالقيم فنفرونا وحملوا علينا غير ان عنادنا استطاع بمدة قصيرة ويسر ان يقربنا من قلوبهم . ذلك ان الشعب كان يدرك ادراكاً غامضاً بنهاية مجتمع، الانسان فيه جاهل ومضطهد ، الروابط فيه ارث من القرون البائدة .

كانت المظالم كثيرة يعاني منها اكثر ما يعاني المجتمع الفلاحي. ولأعط مثلا على ذلك حادثة كنت احد شهودها وكانت منطلقنا الشعبي في المنطقة .

هـ. د . كان يعمل فلاحاً عند ن . ع بك . اراد ان يترك القرية ليعمل عند ملاك آخر فلم يرض ذلك سيده . فجلده وقلع أظافر يده وسجنه في « قن » الدجاج حتى اذا علمت السلطات ذهب القاضي برفقة الشرطة وقام بالتحقيق. طرق باب « القن » مدة يؤكد (للسجين) انه القاضي وانه جاء ينقذه فما تجرأ على الخروج من سجنه الا بعد لأي وتم التحقيق. وكان القاضي « خ . ش » مخلص النية غير انه نقل بعد فترة وجيزة واختفى ملف الدعوى ثم وقفت القضية عند هذا الحد . حدثت هذه

الحادثة سنة ١٩٤٨ ولم تكن الوحيدة . كانت حركتنا تقتات من مثيلاتها ولم تكن المعركة سهلة . كنا نتعرض مستهترين للخطر ، وأحس الجمهور ان هؤلاء الفتية جادون مؤمنون .

لم يستطع نظام الرئيس القوتلي ان يحقق العدالة الاجتماعية بل مكّن للظلم الاجتماعي . كانت مظاهر الديمقراطية تخفي وراءها عيوباً مميتة وشللا مخيفاً فاعتبرت الديمقراطية مسؤولة عن الخلل .

أصبح النواب سدنة ذلك النظام ومستغليه : هم السلطة وهم المدعي عليهم بالنسبة الحركة الجديدة وبالتالي للشعب وخاصة الفلاحين : باب السرايا مغلق الا على المتنفذين الذين أخذوا مع الزمن يزدادون تشبثاً والحاحاً على مزيد من التمتع بامتيازاتهم . لقد ضربوا هم بأنفسهم امتيازاتهم والديمقراطية .

كان جلّ المتسبين للحزب في دمشق من العناصر الشابة الطلابيّة القروية التي كانت تؤم الجامعة والثانويات بين ١٩٤٠ — ١٩٥٥ حتى اذا انتهت عادت الى مسقط رأسها فتوالي نشاطها . ولقد كانت الشروط الاجتماعية في الريف مؤاتية لنشوء الحزب وامتداده فتضخم فيه وظلّ هزيلا في المدن ، وخاصة دمشق . ومع الزمن أصبح جسماً كبيراً برأس صغير .

من يقرأ سير الاحزاب التي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ يجد انها بدأت من نواة ، ثم امتدت. وقد اكد على هذه النقطة الاساسية هتلر في « كفاحي » .

كانت تقضي حتمية العمل السياسي الجدي ترسيخ الحزب في دمشق والسيطرة على قواها الشعبية قبل الانتقال الى مدى آخر. ولكن الحزب كان مستعجلا يبحث عن غنيمة سهلة والعمل في دمشق عسير .

انها مدينة التاريخ العربي لا تسلس قيادها الا لعاشق على قدّ فتنتها : مدينة الانتظار تستأني وتتريث ثم تتمنع فترفض او تقبل : رفضها يعني استحالة الاستمرار ، قبولها يعني دخول التاريخ من اوسع ابوابه . لم يصبح الاسلام دولة عظيمة الا حينما حملت رايته وما كان لفكرة القومية

العربية شأن لولا انها آمنت بها . هي عاصمة الشرق الاوسط عبر التاريخ تظل تنبض بسّر الحياة وسرها رغم ما حاق بها من نكبات ، هي هي دائماً المشعل الذي يخبو نوره أحياناً فلا ينطفئ وكثيراً ما تعمه العيون عن القبس الحيي ، تخاله خبا وهو يجمع خفاياه لوميض تخشع له الأبصار .

خطيئة البعث المميتة انه شتت قواه حينما كان ينبغي عليه ان يركزها اولا في دمشق ، غير انه استصعب اقناعها وارتضى لثورته قناعة المناضل الكسول .

لم يدرس البعث بناء دمشق الاجتماعي الذي تكوّن خلال آلاف السنين فبات ارثاً عضوياً . قنع البعثيون ان دمشق لا يمكن ان تكون بعثية فأقاموا بينهم وبينها جدارا من المستحيل، مع انها مدينة بعثية أصلا عندما يعود البعث قومياً عربياً .

وراء تكوين هذه المدينة التجاري عفوية عشائرية وتقييم أخلاقي للانسان يجعل من العلاقات بين الافراد تقاليد انسانية شبه دينية ، اذا زالت ، زال معنى دمشق : تنشأ بين الدكاني وخادمه اذا ائتمنه وشائج أسرة تؤول الى الشراكة والقربى بالزواج ، له مع عملائه وزبائنه المنتشرين في الريف والبلدان العربية المجاورة طراز من التعامل القائم على الوعد والثقة ، تطور فأصبح تراثاً وأساساً في علاقة التاجر الدمشقي مع العالم ، لم يضعفه الزمن منذ الآراميين وانما متنه وشدد اواصره فكان رأسمال دمشق والدمشقي .

وراء المظاهر التي يشاهد العابر العادي في شوارع دمشق فتخدعه عن حقيقتها وتوهمه أنها مدينة قريبة من التحلل ، تمسك بالتقاليد عنيد غير متعصب : قد تكون دمشق من اكثر المدن الاسلامية صلاة وصياماً ، نسبة عدد الحجاج السنوية منها ، أظنها اكبر نسبة ، يدفع فيها التجار الزكاة .

ليس سهلا ان تنتزع منها تقاليدها او تنتزعها من ماضيها القديم لتقنعها بنظرة جديدة للحياة رغم انها عطشى لكل جديد ، تتقبله اذا كان صادقاً. طبيعتها طبيعة مؤمن حقيقي يبطئ حتى يقنع ، فاذا فعل تشبث فعاش

بعقيدته الجديدة ولها .

سهل قياد دمشق صعب ، انها تعيش دائماً على انتظار ايمان كبير كي تحقق فيه ومعه وجودها ومعناها التاريخي ، تظنها ماتت فما تجس نبضها حتى يفاجئك بطاقة عجيبة على الحياة ، تهدأ حتى لتظن انها قبر ثم تنتفض فتجد الطغيان تحت قدميها .

لم يدرك البعث سرّ دمشق ، ظنها حجارة وابنية وشوارع وسابلة ، لم يهتم بالنواة القوية ، قنع بظروفه وامكاناته ، لم يتحدّ الصعب ، وجد ان عناصره الاولى ريفية وانها عائدة الى الريف بعد الدراسة فترك الأمور تسير على هواها دون ضابط . لم يطبق النظام الداخلي أبداً . كان كل مسؤول يبتدع نظامه العفوي فكان غير موحد العمل ، غير موحد التفكير : أحزاباً عديدة تحت اسم واحد ، توسع في أمكنة وظل صغيراً في أخرى حسب طاقة القائد . وفي دمشق وصم تاريخه بالغربة عنها. وفيما قدمت يكمن ما أصيب به من خيبات وفشل .

قاد الحزب بين ١٩٤٣ – ١٩٤٩ معركة جدية . كان على قلة عدد المعارضة الفاعلة لنظام الكتلة الوطنية والرئيس القوتلي . لا اعني من ذلك انه كان الحزب الوحيد او اقوى الاحزاب ولكنه استطاع وحده ان يعطي المعارضة طابعاً قومياً كلي النظرة شاملها رغم كل الارتجال . لم تنقصه حرارة العاطفة بل العمق .

كان فوق ذلك يجري ويلهث وراء الأحداث ولم تكن أبداً بسيطة . كانت المشاركة في اكثرها ضرورة وطنية ولكنه انزلق اكثر مما ينبغي لحزب عقائدي جديد . تدخل حتى في الصغائر ، جر الى اكثرها جراً فدار في الدوامة لم يحافظ على استقلاله وبعده عما يجب ان يبتعد عنه . لم يخطط لاية معركة فيبدأها حيث ومتى وكيف يريد ، فبدا حزباً سياسياً محضاً بنظرة جديدة وشعارات تختلف عن غيره .

عندما ندرسه في هذه الفترة نجد الخطوط العريضة صحيحة نابعة من فكرته ووجدانه القومي حتى اذا تأملنا التفاصيل فاجأتنا الطفولة السياسية والخفة ورومانتيكية بعيدة عن الواقع وكثير من الكلام الذي لا معنى له

واستعجال للامور . كانت القيادات خائفة من عدد المنتسبين الصغير تزعجها الصعوبات المادية ، تلح على ضرورة « بذل نشاط كبير » كي يصبح الحزب جماهيرياً مع انه كان ينمو بطيئاً وينصهر شيئاً فشيئاً رغم الفوضى .

كانت الاحزاب عديدة ولكن الذي لعب دوراً أسياسياً هي : حزب الشعب، والاخوان المسلمون، والحزب الشيوعي، ثم العربي الاشتراكي .

لم يكن حزب الشعب غير جزء من الكتلة الوطنية ، انفصل عنها نتيجة لخلافات محلية تقليدية ، انتخابية اولا ، تكوينهما ونظرتهما للبنية الاجتماعية واحد . حمل حزب الشعب شعار المحافظة على الديمقراطية ولكن تقييم الشعب له كان تقييماً انتخابياً لعبت فيه علاقات الحي والأسرة والعشيرة الدور الاول .

لن اتحدث كثيراً عن التعاوني الاشتراكي ، فلم يكن غير طفرة دمشقية قصيرة الاجل، فتوة الكتلة الوطنية التي بدأت تشيخ ، لم يعط جديداً . كان مظهراً من مظاهر نزاع حركة المقاومة التي ظهرت مع القرن العشرين ، لا يعيش في مرحلة الاعداد لبناء مجتمع جديد ، نبه الاستقلال لضرورته .

اما الاخوان المسلمون فقد بدؤوا يكوّنون قوة شعبية وجدت في الجمهور مناخاً ملائماً لأفكارها جهدت في ان تحتكر تدين سورية وخاصة دمشق .

لم يستطع الحزب الشيوعي ان يكون رائد المعركة رغم الحاحه على ذلك وظل دوره ثانوياً بعيداً عن صميم شعب سورية لأنه لا قومي اولا .

حتى أيار ١٩٤٥ كان البعث العربي بلا مكتب ، عدده القليل لا يمكنه من طبع بيان الا بصعوبة . كان الوضع في سورية ينذر بأن الشرارة دانية ، تأزم بين الانتداب والحكومة السورية التي أخذت تستعد للمقاومة المسلحة معتمدة على الشرطة والدرك .

أذاع الحزب بياناً علّق فيه معارضته للحكم وأعلن عن تنظيم شعبي سماه : فرق الجهاد الوطني . واستأجر مكتباً .

في ٢٩ أيار وقعت الواقعة وقذفت المدفعية الفرنسية مدينة دمشق واشتعلت الثورة في سورية كلها . أرتدى شباب الحزب ثياب الشرطة واشتركوا أينما كانوا في المقاومة ولكن الثورة أخمدت في أيام ودخل الجيش البريطاني الثامن بقيادة الجنرال باجيت ليحسم النزاع بين الفرنسيين وسورية فاعتبره الشعب محرراً . وانتهى الامر الى نهاية الانتداب الفرنسي ونالت سورية استقلالا هيّناً رخيصاً ، كان نتيجة للخلافات الدولية .

تاريخ النزاع بين فرنسا وبريطانيا في منطقة الشرق الاوسط بدأ مع غزوة نابليون بونابرت لمصر واشتد بعد الحرب العالمية الاولى وفي فترة الانتداب الفرنسي على سورية . كانت بريطانيا وراء كثير من الاحداث ورجال السياسة فيها. ولست هنا في مجال بحث مستفيض عن ذلك ولكني لا غنى لي عن ان أتطرّق الى ناحية كانت ذات أهمية كبرى في تاريخ البعث وفي تاريخ العرب الحديث كله ، وهي القضية الفلسطينية .

عندما نقرأ ما يكتب عن الوضع السياسي في بلادنا يبحث الكتاب الأسباب ويستخلصون نتائج غريبة لأنهم يسقطون من حسابهم أهم العوامل واولها او يولونه أهمية ثانوية . بعض يذهب الى الصراع الطبقي والرجعية وبعض الى الاستعمار دون تحديد هوية المستعمر وكيفية تدخله حتى غدا بعبعاً أزلياً اسطورياً لا تدرك هويته، وقل من يشير الى قيام اسرائيل .

هذا الحدث هو اهم وأخطر ما شهدته المنطقة منذ أربعة آلاف سنة ، وقفة في التاريخ على مفترق الحياة والموت ، هل تبقى ارض الوطن ام لا ؟ وحدة العرب وحريتهم او الاستعباد الازلي مرهون بالحل الذي نجده له . كان عاملاً اساسياً في كل ما جرى على ارضنا منذ سنين طويلة . نضل دائماً في الاسباب والنتائج اذا رفعناه من اعتبارنا . عندما نتعمق نجد آثاره وتدخله في أدق التفاصيل السياسية والاقتصادية . كان من اسباب استقلال كثير من الدويلات العربية وخاصة سورية. ولا ننس ان السياسة التقليدية في فرنسا كانت تعارض في قيام وطن قومي يهودي. وقد شجعت الثورات التي قامت في فلسطين ما بين الحربين رغم قوة الصهيونية في

الاحزاب الفرنسية والاوساط المالية وتدخلها الدائم .

جاء استقلال سورية والبلدان المحيطة بفلسطين ، حين أصبحت منظمة الهاجاناة والمنظمات العسكرية الأخرى قادرة على الدخول في حرب محلية ضد جيوش في طور التكوين . كان ممكناً ان تقوم اسرائيل قبل ذلك وان تستقل تلك الدويلات استقلالا مشروطاً كاستقلال العراق . لو لم تخش الصهيونية عاقبة ذلك .

سنة ١٩٣٧ زار الياهو ساسون الحلبي الأصل الرئيس القوتلي وكان وزيراً للدفاع في وزارة الرئيس جميل مردم بك (باعتبار ساسون مواطناً سورياً حتىئذ) فعرض عليه التعاون من اجل توقيع المعاهدة السورية الفرنسية شريطة الاعتراف او غض النظر عن قضية الوطن القومي وألمح الى الاخطار المحيقة بها والى توقع فشلها — وكانت كل الظروف تشير الى النجاح — فرفض الرئيس القوتلي ودخلت المعاهدة بعد قليل في دوامة الاخذ والرد حتى آلت الى الرفض من قبل فرنسا .

بعد ان انتهت نشوة الفرح بالنصر وضع الشعب اكاليل الغار على رؤوس المحررين الانكليز واصبح الجنرال سبيرس مواطناً دمشقياً . وبدأت المعركة الداخلية ولم يكن في الساحة غير البعث والى حد ما الحزب الشيوعي .

خرج القوتلي من معركة الاستقلال زعيماً ظافراً ، يحيطه رفاقه بهالة قدسية فسماه الرئيس فارس الخوري « الزعيم الرئيس » وكان يقول عنه السيد صبري العسلي وزير الداخلية : « أمرني زعيمي » وبات سلطة شعبية رسمية لا يمكن ولا يجوز المساس بها . وعملوا على تأكيد هذه السلطة وتمتينها بقوانين فيها كثير من روح الدكتاتورية والجنوح عن الديمقراطية وأخصها بالذكر المرسوم رقم ٥٠ الذي جوبه بمعارضة شديدة فلم ينجح رغم ان البرلمان كان على استعداد للتصويت له. وبدأ النزاع بين الشارع والسلطة . كان هذا التناقض غريباً : المواطن نفسه الذي يصوت مع الحكم يتظاهر ضده .

لم يستطع اعتبار الرئيس القوتلي الشعبي ان يربأ صدوع النظام. فقد كان

مهلهلاً . عندما جاء الحكم نهد رفاقه يقتسمون المغانم، كل يطالب بثمن النضال وما كان بخيلا عليهم . الا ان الدولة ضاقت بالحاحهم .

كان الرئيس القوتلي من عالم لا ينتسب الى القرن العشرين ، غير قادر على الاضطلاع بكل المهمات التي شاء قدر سورية ان تتحمل أعباءها، فناء نظامه تحت ثقل هذه المسؤولية التاريخية .

بدأت سورية تتخبط في بحران الآمال الكبيرة والطاقة الصغيرة . أخذت على نفسها عهد القومية العربية والوحدة ومنحها الاستقلال تفاؤلا تقصر عن تحقيقه قواها . باتت سورية على مشارف المستقبل بكل وعثائه وجماله والرئيس القوتلي من الماضي .

أخذ وجوه الأحياء يملأون عليه قليلا قليلا قليلا قصر المهاجرين ومكاتب الدولة بشفاعاتهم ووساطاتهم ومصالحهم ، كلما اقتربت الانتخابات ازدادوا الحاحاً فانصاع لرغباتهم وثقته بهم وحبه لهم ولعب به الغرور فقد اعتبر نفسه الأمين على الاستقلال من أيده أخلص ومن خذله خان. وكان برلمان ١٩٤٣ ــ ١٩٤٧ طيعاً له حتى سمي « بمجلس الاجماع » ما عدا استثناء وحيد هو الاستاذ أكرم الحوراني .

كانت تجري الانتخابات ، ابان الانتداب على درجتين : يختار كل مائة ناخب ممثلا لهم يدعى ناخباً ثانوياً وهؤلاء ينتقون أعضاء المجلس النيابي فكان التعيين بهذه الطريقة سهلا. واراد الرئيس القوتلي ان تستمر على ما كانت عليه غير ان الشارع عارض للمرة الثانية ونشط البعث نشاطاً كبيراً الى جانب القوى الشعبية الاخرى فقامت المظاهرات ووقعت العرائض الشعبية وآلت الحركة الى رضوخ النظام للضغط. وفي سنة ١٩٤٧ جرت أول انتخابات في سورية على درجة واحدة ورشح البعث بعض اعضائه فكان اقبال الناخبين عليهم مفاجأة. ما كنا ننتظر ان حزبا عمره الرسمي سنة (اي بعد مؤتمر نيسان ١٩٤٦ الذي اعلن فيه الدستور) يحظى بهذا العطف والتأييد .

كان شبابَ سورية المثقف . عدد المنتسبين اليه الذين تجاوزوا الثلاثين من عمرهم يعدّ على الأصابع. كان حزب فتيان متفائل غنيّ بالأمل والوعد.

شجاعاً (اعني بوجه عام) أحبّ فيه الشعب ايمانه به . كان لسلوك الاطباء البعثيين الانساني اكبر دور في ذلك فلم ير من قبل أطباء يؤمونه القرى النائية مشياً على الاقدام في حالات كثيرة من اجل مداواة المرضى مجاناً . هنالك قرى لم تعرف زيارة طبيب قبل تأسيس الحزب . كانت يستغرب الفلاحون سلوك هؤلاء الشباب الذين يثرثرون كثيراً « يضحكون كثيراً ، كلامهم له معنى جديد غير ما تعودوا ، لا يطلبون منهم شيئاً أبداً الا ان يأتوا اليهم وان يقفوا على أقدامهم ، ان يصبحوا بشراً حقيقيين ، ان يتعلموا ويقاوموا ، يأكلون معهم ويغنون ويدبكون معهم .

نشأت بيننا وبين الفلاحين صداقات شخصية لا علاقة لها بكل ما هو سياسي ، بعض منهم كانوا ضدنا سياسياً مدفوعين بالتزاماتهم العائلية والطائفية ولكنهم مع ذلك كانوا يحبوننا ، يتحدثون عن هذه الالتزامات بكثير من الاسى . أصبحنا أصدقاء . وثقوا بنا ثقة عمياء . كانوا يعجبون لنا كيف نعيش بلا شباب ولا طموح . آمنوا بنا وبأفكارنا ايمان البسطاء . كانت تلك مرحلة الحزب البريئة الصافية ، مرحلته الخالية من الوصولية نظل نحن رعيله الاول مشدودين اليها بكل طاقة ذاكرتنا على الذكرى . كانت مأساتنا نحن ومأساة الحزب الانسانية عندما اراد الجيل الثاني ان يشوهنا عند البسطاء . لقد اقتلع من نفوسهم الايمان بصفاء الانسان ، وقدرته على ان يكون أميناً . تصوروا انها وسيلة عملية ليحلّوا محلنا فاستخدموا طرق الاعلام الحزبية بشكل مشوه في شعب ما نضجت فيه بعد المفاهيم الحزبية ولا السياسة ولا النظرة الجديدة التي ما رسخت بعد والتي آمن بها من خلال سلوكنا .

كتب الاستاذ ميشيل عفلق في ٢٤ تموز ١٩٤٣ ما يلي : « نحن في دور الممهدين ، فمهمتنا شق الطريق للجيل الجديد لا تعبيدها ، رفع الاشواك لا زرع الرياحين ، غرس البذور الخالدة لا قطف الثمار اليانعة لذلك لن ندخل الحكم عاجلا ، وفي صف النضال سنبقى طويلا . » أخذ البعثيون يرددون هذه الكلمات كأنها آية فقد تجاوبت مع نفوسهم ،

يضعونها على مكاتبهم وجدرانهم كما يصنع المسلم « وعلى الله فليتوكل المؤمنون . »

اضطهدت السلطة في تلك الفترة الحزب بقربته الى قلب الشعب ونفرته منها وبات قوة معنوية على قلّة عدده .

لم تخل انتخابات ١٩٤٧ من التزوير ضد البعثيين وحزب الشعب والاخوان المسلمين فكانت تلك الضربة الثانية التي وجّهت للديموقراطية.

في شباط ١٩٤٨ أخطأ الرئيس القوتلي خطيئة حياته الكبرى عندما عدل الدستور فقضى بامكانية انتخاب رئيس الجمهورية للمرة الثانية وأعيد انتخابه فيما بعد، فأخذت عليه سورية تسخير بنيان الدولة لرغباته. كانت كلمة « دستور » حتىئذ مقدسة لا تمس وأخذت بعد ذلك تهون مع الزمن والقافزين بالسلطة حتى لكانها مقال ينشر في جريدة يومية من الدرجة الثانية .

تميز المجلس النيابي الثاني بوجود معارضة جدية فقد بلغ عدد أعضاء حزب الشعب فيه أربعون عضواً وأخذت تلوح للعين نهاية الرئيس القوتلي والحزب الوطني (وارث الكتلة) وبدأ البعث يشارك في السياسة كعنصر هام ، مشاركة سياسية بحتة .

دعيت هيئة القيادة (١) — كنت احياناً من اعضائها وأحياناً لا وأجهل السبب حتى الآن — لدراسة الوضع السياسي وتقرير التعاون مع حزب الشعب او عدمه .

أقترحت عدم التعاون والوقوف من الحزب الوطني وحزب الشعب موقفاً واحداً وأن نبقى في المعركة وحيدين . كنت ارى الا نشرك أحداً بشعاراتنا واننا لم نبلغ بعد مرحلة التعاون لاننا نجابه خطر تقييم الشعب لنا على اننا حزب كبقية الاحزاب ، ذهبت الى ان الحزب الثوري لا يتعاون

---

(١) كانت الاسماء مختلفة عما هي عليه الان . كان هنالك عميد وأمين ولجنة تنفيذية وهيئة قيادة لها صفة استشارية، فيما بين انعقاد مؤتمرين (مجلسين اي ان المؤتمر كان يسمى مجلساً) .

مع احد الا بعد ان تكتمل صورته ومذهبه في ذهن الشعب وحينما يصبح قوة كبيرة تعتمد على اقل منه تنظيماً وعدداً كي يذوّب قواعدها فيه ، ذهبت الى ان التكتيك يتلو السّتراتيجية ومن الخطر ان يسبق وضع خطوطها الكاملة . عقيدتنا نفسها ما كانت حتى ئذ واضحة في ذهن غالبية الاعضاء ، وأعلنت خشيتي على الحزب من الانحراف العقائدي اذا سلك سبيل المناورة . كنت وما زلت ارى ان القوي اقوى اذا كان وحيداً .

سقط رأيي بالاجماع . لم يكن لدي شك في ان الغاية من الاجتماع كانت لاطلاعنا على الخطة وتأييدها وتنفيذها . كان يرى بقية الاعضاء ان الحزب بدي‌ء لا يحتمل ضغط الحزبين اذا تعاونا ضده ولم يخفوا انهم ينتظرون وصول حزب الشعب للسلطة وان المعركة واقعة بيننا وبينه حينئذ لا محالة . كنت استغرب اكثر من ذلك هذا الاندفاع وراء ما اسمه معركة حين كان ينبغي التجنب والتريث وبناء الحزب في معزل عن صدامات الوصولية للسلطة على ما فيها من وسائل رجعية متخلفة مفروض علينا تبنيها . كنت ارى سلامة الحزب ومستقبله في المحافظة على جدته ووسائله النابعة من سلوكية متميزة نوعياً عما حوله وان نجاحه رهن باستمرار عنيد عليها .

تبينت من المناقشة ان فكرة انتخابات مقبلة نخوضها مع حزب الشعب تسيطر عليها ، وان أنوفاً كثيرة بدأت تشم رائحة السلطة .

ظهر بعد الحرب مباشرة تصميم الحلفاء على انشاء وطن قومي صهيوني في فلسطين ، وأعلن روزفلت عن عزم الولايات المتحدة على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ، وقدمت لجنة تحقيق بريطانية أمريكية لفلسطين في اوائل ١٩٤٦ اقترحت ادخال مئة الف مهاجر اليها فكان قرارها بداية قلاقل ما انتهت ولن تنتهي في عشرات السنين في الشرق الاوسط .

أذاع الحزب في ٢ أيار سنة ١٩٤٦ بياناً دعا فيه إلى اضراب شعبي اشتركت فيه كل القوى وكان ناجحاً وأعجبت الحزب شعبيته ولكن ما قيمة الاضراب في مثل تلك الظروف إذا لم يسبقه إعداد واضح

لشعار المرحلة ؟ إنه لا يعدو ان يكون تصعيداً [1] للطاقة الشعبية .

أخذ يتسرب الشك إلى الشعب في حكم الرئيس القوتلي وقدرته على معالجة القضية الفلسطينية ، ووجهت اليه تهم الخيانة والتآمر . كانت تعيش سورية أكثر مراحل حياتها عصبية تطالب بجيش وتدخل مسلح وما كان باستطاعة الحكم أن يصنع شيئاً . وعالج الحزب المشكلة بكثير من الرومانتيكية وظهر الرئيس القوتلي بمظهر العاجز رغم التصريحات والخطابات النارية .

لقد ذهب الرئيس القوتلي وما زال الشعب يحفظ له بكثير من المرارة والأسى كلمته : « فلسطين عربية وستبقى عربية ولو أطبقت عليها شعوب الأرض . » أخذ قوله هذا بعد الهزيمة على أنه كان خداعاً للشعب عن حقيقة الواقع .

عندما دخل جيش الانقاذ أرض فلسطين تطوّع فيه غالبية الأعضاء على قلّة عددهم واتسم سلوك البعثيين بالحرارة والاندفاع العاطفي . هيمن الشعر على المنطق ولحقت بها القيادة على أن اعضاءها مراسلون حربيون لجريدة البعث فحملوا المسدسات والمناظر المكبرة وآلات التصوير.

لم يكن خافياً على من أوتي شيئاً من العلم ومنطقاً تحليلياً يقيم المعركة أن قرار التقسيم آيل إلى التنفيذ بمعرفة الزعماء العرب ورغماً عنهم ، ان دور جيش الانقاذ كان دور حرب الانصار وان الجيوش العربية دخلت فيما بعد لحماية المنطقة العربية أي لتنفيذ قرار التقسيم والمحافظة على حدوده . لم يكن خافياً ان الأسلوب العربي لا يعدو ان يكون تحضيراً لهزيمة أخرى . ومن أوتي ذاكرة جيدة تداعت أفكاره سنة ١٩٦٧ فوجد أن التاريخ أعاد نفسه بدقة مع فارق وحيد هو تصاعد التصريحات حسب تضخم القوى مع إبقاء النسبة (نسبة الهاجاناه إلى الجيوش العربية سنة ٤٨ هي نفس نسبة جيش اسرائيل اليها سنة ١٩٦٧

---

(١) جرى بعض الكتاب على ترجمة escalade بتصعيد وهو خطأ، وأفضل تصاعد. اما تصعيد فهي ترجمة décollement .

تقريباً) (1) وتبدل القيادات من « رجعية » إلى « ثورية تقلمية » .

لم يستطع الحزب ن يقدّم دراسة علمية واقعية ، ما كان احوج شعبنا اليها . وأنا لا أريد من ذلك ان انقد سلوك القيادة وإنما اذهب إلى انه كان عفوياً ، فردياً متوتّر الأعصاب حين كان يجب عليها ان تلعب دور العقل في شعب فقد في غمرة احزانه وعيه والقدرة على المنطق والتحليل . أخلت بمهمتها الايجابية . ظنت ان المظاهرة المسلحة حرباً فانجرفت في التيار . بقي ان اقول ان الحزب لم يقدم حتى الآن دراسة عن المشكلة الفلسطينية . اعطى مقالات وتصريحات . التزامه بها ما زال عاطفياً فوضوياً . لم يقيّمها تقييماً تاريخياً ايديولوجياً . لم يعط بها رأياً علمياً . قد يقول قائل ان الحزبيين كتبوا عنها كثيراً ولكننا لو جمعنا التناقضات بين ما قيل منذ سنة وما قيل البارحة واليوم لحكمنا على الحزب بعدم المسؤولية الكاملة تجاهها بشتى افتراقاته.

أول حزب حاول اجتذاب عناصر عسكرية إلى صفوفه وادخال اعضاء منه في الكلية العسكرية في حمص هو الحزب القومي الاجتماعي (الحزب السوري القومي آنئذ) . بدأ بذلك منذ سنة ١٩٣٤ وأحاطها بكتمان شديد في ظلّ الانتداب .

لم يكن هنالك جيش سوري أو لبناني بل « قوات الشرق » التي يقودها فرنسيون وعدد قليل من الضباط السوريين واللبنانيين ، وكلية عسكرية واحدة للبلدين في حمص يدخلها عدد صغير من الطلاب الضباط .

اتخذ شعب سورية موقفاً سلبياً من الجيش واعتبر الدخول اليه خيانة ، غير ان الحزب السوري القومي كان عملياً فوجد ان وسيلته الوحيدة لإيجاد نواة مسلحة هي في تسرّب أعضائه اليه .

---

(١) اقرأ « عرب ويهود » .

سنة ١٩٣٦ استبشر الشعب خيراً وظن ان المعاهدة الفرنسية السورية تؤول إلى تصديق فاستقلال وأخذ الشباب يتدافعون للانتساب إلى الكلية العسكرية بدافع وطني وبلغت اعداد المتقدمين لمسابقتها ارقاماً كبيرة، ولكن عدد الذين استطاعوا الوصول اليها قليل. كان عدد دفعة ١٩٣٧ سبعة عشر فقط وهي اكبر الدفعات التي سبقتها.

بعد سنة ١٩٤١ اخذ الضباط الشباب يتقربون من شباب البعث وأكثرهم من رفاق الدراسة. واشتد الحماس شيئاً فشيئاً للحركة الجديدة ومتّن العلاقة جيش الانقاذ بعد ان بات البعثيون رفاق السلاح.

في انتخابات سنة ١٩٤٧ تدخّل الجيش ضد الاخوان المسلمين لمصلحة نظام الرئيس القوتلي. فقد خاف سيطرة رجال الدين على السياسة واستخدامهم أمكنة العبادة لدعوة حزبية. ولكنه لم يغفر للحكم استخدام السلطات للتدخل ضد البعث وبعض عناصر حزب الشعب الشابّة.

بعد هزيمة ١٩٤٨ كان الجيش السوري الوحيد بين الجيوش العربية الذي خرج مرفوع الرأس. لم ينهزم رغم عدده الضئيل وعدته الهزيلة بل تقدم وتجاوز حدود التقسيم واحتلّ بعض المواقع رغم صعوبة الجبهة التي قاتل فيها. بذل من التضحيات وقدّم من الشهداء نسبة فريدة لعدده في قاموس الحرب، وخاصة من الضباط فأرسى أول قاعدة من تقاليده. خرج من الهزيمة وهو يدل على الآخرين بأنه لا ينهزم بل لا يتراجع، واعتبر السياسة مسؤولة أولا عن ضحاياه - فقد اقحمته في ساحة مستحيلة، اضطرته على ان يقاتل في موقع سمخ الذي سمي «مقبرة الجيش السوري» وكان مفروضاً ان تتغلب على خلافاتها مع الدول العربية حتى تتيح له الطريق التي تكلفه أقل ما يمكن من الضحايا وتمكنه من القيام بواجبه في مواقع يختارها هو حسب مقتضيات الفن العسكري. ولاكت الألسنة سمعة المسؤولين عن النظام واتهمتهم بالتآمر على فلسطين وبيعها.

لست هنا في مجال تحليل السياسة السورية المتعلقة بالقضية الفلسطينية آنئذ. ولكنه لا بد لي من أن اذكر انها لم تنجح في تنسيق القوى الحربية

وتوحيدها ، لم تستطع أن تلعب الدور الذي كانت وحدها قادرة على القيام به فتكون الحكم بين العروش والحكومات وتؤجل الخلافات ، جازت عليها كما جازت على غيرها من الدول العربية اللعبة فكان الحصاد أولى الهزائم .

قد يقول قائل : إنها الخيانة ، خيانة الحكومات العربية مجتمعة وهو تعليل سهل لا يغني عن التحليل، رغم انه مريح للمفكر من عناء الدراسة. وقد يقول آخر : وما تفعل الحكومة السورية بين مجموعة من المتآمرين؟ وليس هذا تعليلا اقوى من سابقه ، فلو صحّ لكان واجبها ان تعلن فلا تلجأ إلى التستّر . كما ان اطلاق الاحكام على عواهنها لا يوصل إلى فهم الواقع واستكناه المستقبل .

لا أنكر ان المخطط الذي نفّذ سنة ١٩٤٨ كان اكبر منها وان الفشل كان مقدراً ومقرراً للعرب، غير ان الحكومات العربية لم تخض معركة الفشل بشرف وامانة . كان على الحكم في سورية ان يكون صريحاً واميناً لا يلعب لعبة القويّ امام الشعب ، الضعيف بينه وبين نفسه ومع العدو .

اخذت تحول النقمة في أوساط الجيش على الرئيس القوتلي ونظامه إلى خطة للإطاحة به .

خاض البعث معركة ضارية ضده عبأ لها كل قواه وأخذ الحكم يوجه اليه الضربات فيزداد العطف عليه في أوساط الشعب والجيش . كانت اجتماعاته تهاجم وتصادر جريدته فيزداد عناداً . في ٢٠ ايلول سجن الأستاذ ميشيل عفلق وعندما خرج من سجنه نظم الحزب مظاهرة اشترك فيها اعضاؤه الذين توافدوا من كل اطراف سورية . كانت أول مناسبة يظهر فيها قوة منظمة شرسة واخذ اتصاله بالشعب يزداد ويكثر من الاجتماعات التي يتحدث فيها عن الثورة والانقلابية .

منذ بدء ١٩٤٩ أخذ الحزب يمهّد لانقلاب عسكري . لم يكن بعيداً عمّا يحاك . وفي ٢٩ آذار من هذه السنة أطاح الجيش بنظام الرئيس القوتلي وحلّ قائده الزعيم حسني الزعيم مكانه .

من يقرأ الكتب الموجهة من قيادة الحزب إلى قائد الإنقلاب يلمس احتراماً وتفاؤلا كبيرين. يقول الاستاذ عفلق : « أيها الاخوان، ليس ما حدث في سورية انقلاباً وهو في الواقع خطوة نحو الانقلاب - إننا نستبشر بهذا الحادث ونعلّق عليه الآمال ولكن علينا ان نوسع أفقنا وننظّم صفوفنا وان ننظر دوماً إلى الأمام ، إلى العلاء . فالانقلاب الذي يطمح اليه الشعب العربي هو انقلاب شامل . الإنقلاب الذي يجب ان نسعى اليه دائماً وأن نجعل من انقلابنا الحاضر وسيلة وخطوة نحوه ، هو الانقلاب الذي يحقق للشعب العربي في جميع اقطاره الاشتراكية العربية والوحدة العربية . »

اتخذ الحزب من حسني الزعيم موقف المرشد وسايره هذا فاذاع المذكرة التي قدّمها اليه، ولكنه لم يطق وهو العسكري المتغطرس هذا الأب المدني الذي بدأ منذ الأيام الأولى يشكك برجل التاريخ الذي هو .

اخذ الحزب يوجّه له المذكرة تلو المذكرة . وقابلته القيادة لشرح وجهة نظرها التي تتلخص في : عودة الحياة الدستورية ، انتخاب حر لمجلس تأسيسي يضع دستوراً للبلاد ، اطلاق حرية العمل السياسي والصحافة ، تعيين وزارة من الاحزاب التي قاومت حكومة القوتلي ، عدم توقيع اتفاقيّي النقد والتابلاين .

كان هذا يعني عودة حسني الزعيم إلى الثكنة وتنازله عن دور المحرر والمنقذ والغازي وما كان ممن يحتملون المزاح طويلا .

ويبدو ان الزعيم حسني الزعيم اراد ان يعتمد بعد الانقلاب على حزب الشعب في الحكم، فاستدعى بعض البارزين فيه صباحئذ وحين ابلغهم ان الجيش استولى على السلطة وان الرئيس القوتلي ورئيس وزرائه السيد خالد العظم باتا في السجن ، ظهر عليهم الخوف والتردد . بدأ في الحكم يحسب للسياسيين ألف حساب وسرعان ما استهتر بهم واستخف، فما كان بينهم قادرون على تحمل المسؤوليات في الساعات الحرجة .

كلّف لجنة من الموظفين وضعت له دستوراً عرضه على الاستفتاء الشعبي . ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية وحده ، فكان الجواب : نعم. وخرج من المسرحية رئيساً مشيراً ، حاكماً مطلقاً .

كان حسني الزعيم مزيجاً من المعتوه ورجل الدولة. ويبدو انه كان مريضاً مصاباً بزيادة البولة ولو لم يقتل لما عمّر طويلا . كان يعيش بأحلام عريضة قل ان يوجد مثله امرؤ واضحة فيه العقد النابليونية . أشيعت عنه اشياء ثبت انها غير صحيحة . فقد رويت عنه رشوات وإثراء غير مشروع ولدى التحقيق تبين انه عاش ومات فقيراً .

كان إطلاق الاشاعة وما زال سلاح السياسة والسياسيين السوريين يطلقونها بلا ذمة ولا مسؤولية وانتهى الأمر إلى انهم جميعاً مرتشون بعين الشعب ، فهو سلاح ذو اكثر من حدّ من استخدمه قتل به .

كان حسني الزعيم عسكرياً نموذجياً شجاعاً ، ولد كي يكونه. أراد ان يكون الشعب قطعة عسكرية يأتمر بإيعازاته وان تكون سورية ثكنة. ولقد ايدته وصفقت له وأمّلت بانتصارات على يديه . واشتد تفاؤلها بعد معركة العزيزيات التي برهن فيها انه يحسن المغامرة والقتال ، لا يتصرف تصرف السياسيين ، ليس على جبنهم .

كان يمكن لحكمه ان يمتد اطول ولكنه كان انساناً وحيداً بلا جماعة ، قوته الشعبية موقتة ، تابعة لتقلبات الأنواء ، لم يعتمد تنظيماً أو حزباً ، خدعه التأييد الذي لقيه في الأيام الأولى ، ظن أن قوة شخصيته كفيلة بضمان استمرار الدعم الشعبي .

كان الجيش قوته ، علاقته به انضباطية ، أمر وطاعة وما كان يظن انه يخل بها . عندما اصبح رئيساً للجمهورية تلاشى الرباط الذي يشدّ القوات المسلحة اليه. ولعبت فيها الأهواء والميول السياسية وتأثرت بالنقد الموجّه اليه ، فأخذت تتخلى عنه .

اتسمت تصرفاته بالعنف والتوتر والطيش ، ركب رأسه لا يقبل جدلا ولا مناقشة وصمم على أن يحكم بالقوة . ووقعت الواقعة بينه وبين البعث بعد بياني ٣٠ أيار و ٩ حزيران سنة ١٩٤٩ اللذين هاجمه

فيهما وانحى باللائمة لانه لم يحترم الدستور ولم يطلق الحريات ولانه الغى الاحزاب ووقع اتفاقيتي النقد والتابلاين فاعتقل عدداً من شباب الحزب وعلى رأسهم الأستاذ ميشيل عفلق .

دخل السياسيون لأول مرة بعد استقلال سورية سجن المزّة ودق المشير حسني الزعيم ناقوس التعذيب الذي ما زال يرنّ على الهضبة الصفراء الباهتة ، يشتد قرعه مع الزمن ، كأنما السوط هو سلوة تاريخ سورية الحديث ، تتتابع الحكومات والأنظمة كي ينتقل فقط من يد إلى يد ، إذا تعبت إحداها من حمله سقطت وائتمنت الأخرى عليه فافتنّت وحذقت كيّ الأجساد بسعيره .

قبض على غالبية الأعضاء واختفى من استطاع . أدرت المذياع في مخبأي لأستمع إلى نشرة اخبار الظهر وإذا بها تبدأ بمذكرة الأستاذ ميشيل عفلق إلى حسني الزعيم التي يتخلّى فيها عن السياسة ويوصيه فيها خيراً بشباب البعث العربيّ. ونشرت بعد ذلك في الصحافة ممهورة بتوقيعه.

قيل كثير عن هذه المذكرة ، رويت عنها الأساطير ولكنّها ظلّت حتى الساعة ترزح على تاريخ الحزب . روي ان الاستاذ عفلق كتبها تحت التعذيب . وقد ثبت لي انه لم يعذب في سجنه ذاك ابداً ، ولم اسمع اي شيء عنها من فم الاستاذ ، بل لم احضر المؤتمر الذي نوقشت فيه بعد الانقلاب على المشير حسني الزعيم (كانون ١٩٤٩) وأثارها عليه فيه الاستاذ صلاح الدين البيطار . ولكني عرفت كل ما دار فيه بطبيعة عضويتي ومسؤولياتي . لم يجب عنها الاستاذ عفلق صراحة . كل ما قال انها براعة منه . لم يشر في ردّ الهجوم إلى انه عذّب . ظللت سنوات كلّما اجتمعت به هممت بسؤاله عنها ثم عزفت لمعرفتي ان الحديث حولها يجرحه .

قيل ان الاستاذ عفلق لم يكتبها . بل وقعها فقط ، والذي صاغها هو العقيد المرحوم ابراهيم الحسيني الذي كان من انصار الحزب قبل انقلاب حسني الزعيم . وقد خدعه إذ زيّن له ان حكم الزعيم آيل إلى نهاية قريبة ، وان الزعيم عازم على البطش بالحزب حتى لا تقوم له قائمة ،

وان المنطق يقضي بتجنيب الحزبيين هذا المصير كي يسلموا للنضال، وان عددهم القليل لا يحتمل هزة كبيرة .

وهنالك رواية اخرى ان الاستاذ كتب مذكرة طويلة بناء على طلب العقيد الحسيني فلما قرأها هذا قال : « لم أرد كل هذا التخاذل . فنحن شباب نرفض أن يصل العقائديون إلى هذا المستوى من الضعف . » وصححها فجاءت كما نشرت . من يقرأ اسلوبها يجد فعلا انه غريب على اسلوب الاستاذ عفلق، ولكن التوقيع لا مجال للشك فيه .

لم يصدر الحزب عنها بياناً . اكتفى باللفلفة والصمت. مع ان تفسيراً صريحاً كان ضرورياً مهما تبلغ عواقبه التي لا اظنّها أخطر من الخلل النفسي والخيبة التي أصيب بها الأعضاء فافقدت الحزب كثيراً من معناه العاطفي واحترامه للتسلسل القيادي . بات يتقبّل المراوغة ، سقط عنفوانه وظهرت عليه امائر الحزب السياسيّ العادي .

عندما خرج الأستاذ من السجن جوبه بثورة من الحزبيين وحملة شعواء ، رفضوا جميعاً كل تعليل أعطي لهم . كانوا مجمعين على أن الموت أفضل، وان المهم أن يبقى شرف الحزب ورسالته، وان شهيداً ينقلها للأجيال خير من أحياء تراجعوا أمام التهديد بالتعذيب .

تنادى أعضاء الصف الثاني في الحزب إلى عقد اجتماع في حمص مباشرة بعد سقوط حسني الزعيم وأجمعنا على ضرورة محاكمة الأستاذ عفلق. وقرّ رأينا ان يكون عميداً مكانه الدكتور وهيب الغانم الذي لمع نجمه بعد انتخابات ١٩٤٧ وبات قدوةلشباب الحزب يتحدثون عنه ،، يحبونه ويؤمنون بقيادته ، شاعري الحديث أخاذه ، خطيب بارع في صوته حنان شجيّ على ضعفه ، مناضل عنيد منذ كان فتى صغيراً في اللواء ، اكثر تلاميذ الأرسوزي شبهاً به نفسياً ، ولكنه كما قال عنه الشاعر صدقي اسماعيل في مجلة الكلب[1] : «ينظّم العالم وهو

(١) مجلة مخطوطة يحررها شعراً، ويرئسها ويديرها الأستاذ صدقي اسماعيل منذ سنة ١٩٤١ولم تتوقف ابداً . توزيعها عدد واحد فقط ، تحوي تاريخ الحزب والحزبيين الذين برزوا فيه بأسلوب ساخر جميل . لم يسلم أحد منا منه .

ليس منتظم . »

بعد ذلك عقدنا اجتماعاً ثانياً دعي اليه الدكتور الغانم، فرفض اقتراحنا متعللاً انه لا يستطيع ترك اللاذقية. فاقترحنا ان يكون مركز الحزب فيها أو أن يكون دمشق حيث تتسلّم القيادة لجنة تنفيذية جديدة فرفض لانه كان يرى أن القائد يجب ان يكون على رأس قيادته واقترح ألا يثار الموضوع .

قد يكون هذان الاجتماعان أول الاجتماعات التي تعقد دون معرفة القيادة وأظنها جهلت أمرهما مدة طويلة فلم تبدأ الحملة ضد الدكتور وهيب الا بعد فترة . ولكن البادرة كانت خطيرة ، وهي انما تدل على أن القائد ميشيل عفلق قد انتهى وحلّ محلّه الأستاذ الذي ظل الحزب على ولائه له واحترام فكره، دون الإيمان بقدرته على الزعامة .

من الحناوي حتى الشيشكلي

لم يدم حكم حسني الزعيم غير ستة شهور سقط بعدها هو والسيد محسن البرازي برصاص انقلاب آخر ومحاكمة سرية لم يعرف عنها شيء تقريباً . كان اول اغتيال شبه رسمي في عهد الاستقلال احيط بهالة مثالية واعتبره السياسيون جميعاً ثأراً لكرامة الوطن والمواطنين ، ثورة الديموقراطية على الديكتاتورية . لم يعترض أحد على شكليات المحاكمة وطريقة تنفيذها . لم يتبادر لأذهانهم انها تصبح ذات يوم تقليداً وجزءاً من تاريخ سورية المعاصر .

إن دلّت هذه المحاكمة على شيء فإنما تدل على ان تقييم الإنسان متخلّف . لقد أثبتت الأحزاب دون استثناء انها تجيز الاستهتار بالقوانين في الحالات الخاصة حتى غدت وضعاً دائماً . أتساءل ما كان يكون موقف الأحزاب لو ان القتيل كان من اعضائها ؟ كان موقفها مشجعاً للقافزين بالسلطة ووسائلهم .لقد عاش المواطن السوري منذئذ يفتح أذنيه وقلبه كل صباح لعله يسمع مارشاً عسكرياً وبياناً رقمه واحد، كي يصفق في اليوم الاول ويبصق في اليوم الثاني وينتظر مارشاً آخر وبياناً آخر في اليوم الثالث .

كان التبرير الوحيد الذي قبله السياسيون فرحين دون مناقشة لقتل الزعيم والبرازي الخشية من ردّة فعل في الجيش . فقد كان الزعيم محبوباً من الجنود وصغار الضباط . ولقدفرضت الظروف الخلاص منه ، أما الاعتبارات الاخرى فلم يقم لها احد وزناً .

تألفت حكومة موقتة كان من بين اعضائها الاستاذ ميشيل عفلق

وزيراً للمعارف . واعلن عن اجراء انتخابات لمجلس تأسيسي يضع دستوراً. ولكن الاستاذ عفلق ما عتم ان استقال في ١٨-١١-١٩٤٩ ، اذ وجد نفسه يواجه حزب الشعب الذي لا يختلف عن الحزب الوطني في تكوينه والذي لم يتعلم من نهاية الرئيس القوتلي والمشير حسني الزعيم والانقلابات شيئاً . جاء إلى الحكم حريصاً على مصالحه كلها وخاصة الانتخابية ، وبدأت منذ اعلن عنها التدخلات ومحاولات اجتذاب الضباط واستجداء مساعداتهم ودعمهم . وبرزت إلى الوجود في الجيش نزعات العشائرية والتشبث بالوضع الراهن الاجتماعي والطبقي .

كان الضباط والبارزون منهم خاصة يبدون الحياد ولكنهم يتدخلون بشكل أو آخر ، كما أخذت السلطة تلمّح إلى اتحاد مع العراق وإلى دفاع مشترك معه وطرح على بساط البحث : ملكية ام جمهورية .

ذهبت إلى دمشق لتهنئة الأستاذ ميشيل عفلق ودخلت إلى غرفة الانتظار في الوزارة فوجدت المناضلين قد حلوا محل المتنفذين وزعماء الاحياء فملأوها. وشكا لي امين السر الحاح الطليعة واستعجالهم وضيق الوقت فعدت دون ان اقابله . وجد نفسه في حرج اكرهه على اصدار امر حزبي يمنع الحزبيين من دخول الوزارة ويطلب منهم ان يراجعوا في مكتب الحزب .

منذ انتخابات ١٩٤٧ اخذت تظهر على الحزب اعراض مرض خطير هو « المراجعات » بحجة مساعدة العمال والفلاحين وانتزاعهم من يد الاقطاع. وانشئت في مكاتب الحزب بعد ذلك مكاتب خاصة بالمراجعات . واخذنا نرى المناضلين يناضلون في اروقة السرايا يتعلّمون فن الزلفى وكسب صداقة الموظفين، والعمال والفلاحين ينتقلون من سيد إلى آخر بدل أن يتعلّموا الثورة .

كان الحزبيون في عجلة من امرهم لاكتساب عطف الجمهور وتأييده، فالانتخابات قريبة. وباتت دوائر الحكومة همزة الوصل بين الثورة والجماهير، واصبح شغل البعث الشاغل ، في الفترة التي بدأ فيها يكون حزباً ، نقل موظف أو تثبيت موظف .

انتهت انتخابات ١٩٤٩ بنجاح حزب الشعب وفشل اكثرية البعثيين وبروز الحزب العربي الاشتراكي كحزب جماهيري. وما كانت الوسائل التي استخدمت ضد الحزبيين في الانتخابات تختلف عن وسائل الحزب الوطني ، ولكن القوة الجديدة أثبتت انها قوة فعلية .

تألفت وزارة شعبية طرحت مشروع اتحاد بين سورية والعراق فصدر في جريدة البعث مقال في ٩-١-١٩٥٠ يعلن رأي الحزب فيه . ولاول مرة اعلن تمسكه بالنظام الجمهوري . ولا ننس ان دستوره قال بنظام نيابي دستوري ولم يعين شكله الجمهوري او الملكي وذلك لسببين ، اولهما فسح المجال لاقامة وحدة بين نظامين ، والثاني لتجنب الاضطهاد في ظل الأنظمة الملكية .

لا يخلو المقال من تناقضات . فهو يؤيد الاتحاد بين البلدين لان « الوحدة بالنسبة الى العرب هي القانون الأعلى والهدف الاسمى الا انها لا تكون ممكنة ولا تكون سليمة السير مضمونة النفع الا اذا رافقها تقدم الشعب العربي نحو الحرية والاشتراكية . » ثم يقول : « غير ان هذا كله لا يبرر بقاء التجزئة ، اذ ليست التجزئة الا اكبر دعامة لبقاء النظام الاقطاعي البالي واستمرار الدول الاستعمارية في تدخلها وتآمرها . »

ايد المقال الاتحاد ورفضه ، وضع له شروطاً تجعل تحقيقه مستحيلا . فقد طالب به شريطة تعديل المعاهدة العراقية البريطانية تطمين الشعب إلى ان لا يكون الاتحاد وسيلة لاستثمار الشعب واخضاعه لسيطرة الطبقات الرجعية الاقطاعية . واعتبر المقال ان المشروع استعماري بريطاني .

أردت هنا ان اؤكد تمسك البعث بالنظام الجمهوري لتناقض هذا الموقف مع ما جاء بعد . كما اردت ان اسجل تردد القيادة حين ينبغي الحزم. كان عليها ان تقول لا او نعم. كان خطأها خطأ سياسياً فادحاً. فلقد كان الاستعمار البريطاني ضد كل وحدة بين قطرين عربيين وما كان اسهل عليه ان يوحد سورية مع الاردن او العراق سنة ١٩٤٥ .

ان الحدس السياسي الواعي كان يرى ان النظام الملكي في العراق وحكم نوري السعيد آيل إلى نهاية سريعة، فما كان يمكن ان تنتهي الهزيمة في فلسطين الا إلى تبدلات جذرية في المنطقة . وأقدر ان طرح المشروع في تلك الفترة لم يكن الا لقطع الطريق عليه في المستقبل، فلم تكن الظروف مواتية له وما كان يمكن ان يودي الاتحاد إلا إلى التعجيل في ١٤ تموز ١٩٥٨ . ولا اعتقد ابداً ان حزب الشعب كان جاداً في طرحه كل الجد، كما انني لا اعتقد ان اليسار العربي هو الذي حال دونه.

لم يدم حكم اللواء الحناوي طويلا فقد اقحم نفسه في معركة سياسية صعبة . كان الشرق الأوسط يتخبط جميعاً . تزلزلت الأرض تحت الأنظمة وأخذ العرب يكتشفون الاوهام : وهم الاستقلال ، وهم الحكومات والمجالس النيابية والأحزاب . ولم يكن اللواء الحناوي ممن يستطيعون الثبات امام هذا القلق الشعبي ، فقام انقلاب عليه بقيادة العقيد أديب الشيشكلي .

تعرفت إلى الشيشكلي سنة ١٩٤٢ ثم رأيته للمرة الثانية سنة ١٩٤٤ فعجبت لقسوة وجهه وعجرفة تقاطيعه وصمته . زار بلدتي سنة ١٩٤٦ وبقي عدة ايام فيها كنت اراه فيها يومياً . لم يكن اسمه مجهولا فقد كان من الضباط الذين تتحدث عنهم كثيراً اوساط البعث وينتظر منه شيئاً يخرج عن المألوف . اردت ان ادفعه إلى الحديث فما نجحت. فقد كان مستمعاً دائماً ، لطيفاً دائماً . سنة ١٩٤٨ رأيته صدفة في نادي الضباط في دمشق. كان يشرب. لاحظت انه لا يضع الكأس امامه بل جانباً يتناوله فينظر اليه ويجرع ثم يبعده عنه إلى اقصى مكان من المائدة . كانت حركاته تفضح قلقاً عنيفاً ، فاخذت ادرسه في اكثر الحالات تعبيراً، تلك التي يصبح فيها لكل نأمة معنى . لا ادري كيف وردتني فكرة انه سيحكم سورية ثم يمل فيتخلى عن الحكم . كانت تصرفاته تعبر عن الاحتقار والقرف والملل .

نهضت مودعاً قريبي الذي دعاني فإذا به يناديني قائلا : « أنا ادعوك ايضاً . » اعتذرت فرفض عذري والح فقبلت . اخذ يغب

الكأس غباً . كلما اعتذرت ابى، وبعد قليل انقلب المقدم اديب الشيشكلي الهادىء الصامت إلى ذئب كاسر يعض على الكلمات عضاً، تومض في عينه شهوة قتل، يقبض على كأسه ويتكلم وهو يشير به ثم يشرب . رمى الرئيس القوتلي بأشنع كلمات الهجاء فأذهلني قاموسه . لم اكن اعلم انه يحيط بهذا الغزير من الشتائم. وجاء دور حزب الشعب، فنكّل بكل اعضائه تجريحاً، قال: «إنهم لا يستطيعون حكم بيت دعارة ولكنهم سيصلون إلى حكم سوزية لاننا اغبياء. ثم انتقل إلى البعثيين فوصمنا بالجبن والكذب» فاعترضت وقمت منسحباً فتشبث وقال : «إني امزح ، انتم طيبون ، مصيبتنا بكم انكم خياليون ، نحبكم ولا نثق بقدرتكم على ادارة مدرسة ابتدائية . »

ودخلنا في مناقشة كان خلالها قريباً للهدوء . وجدتها افضل فرصة اعرف فيها آراءه . لم يكن عسكرياً عادياً . ثقافته غير واسعة ولكنه غني الحدس يعرف ما يريد ، مفهوم الدولة عنده واضح ، هرميّ البنية مستوحى من ثقافته العسكرية ، قوي الفراسة ، قوي الشخصية ، عنيد، ولكن القرف والملل يلوّنان حياته ونظرته ، يسيطران حتى على منطقه ، يمتدح بعض الاشخاص ، ثم ينتهي بكلمة : لكن ...

كان يعاني أزمة فقدان فلسطين ، يعرف اننا فاشلون في معركتها الأولى . كان يائساً يخفي يأسه حتى عن نفسه ، وتبدي ما يخفي كلمات وحركات قد لا يفطن لها الا المدقق . كان يخوض المعركة يدفعه الشعور بالواجب وهو يعلم انه دون جدوى . فرد بعيد عن الآخرين حتى في أشيائه الصغيرة ، ظل وحيداً حتى في اوجه ، وحيداً حتى الموت الذي التقى به اخيراً في نهاية تافهة ، غريباً فقيراً ، حزيناً وحيداً .

عندما نعود إلى انقلاب حسني الزعيم نجد ان المقدم أديب الشيشكلي لعب في التحضير له الدور الأساسي . وكان طرده من الجيش من اسباب النقمة المباشرة عليه .

أصبح العقيد الشيشكلي معاوناً لرئيس الأركان العامة بعد الانقلاب على اللواء الحناوي. ثم أخذ يتدرج قليلا قليلا. ولم يكن يجهل احد ان

السلطة بين يديه .

اطلق ، عندما بدأ ، حرية العمل للعربي الاشتراكي حتى لقد اعتبر سنة ١٩٥٠ حزباً شبه رسمي . وظنّ كثيرون ان العقيد الشيشكلي عضو فيه . وكان موقفه من البعث العربي غامضاً فلا هو خصم ولا هو صديق ، ولكنه ظل على علاقة حسنة ببعض الأعضاء البارزين فيه واحسن استغلال الحزبين في المعركة التي فرضها على حزب الشعب وألغى في نهايتها في ٢ كانون الأول ١٩٥١ الحياة النيابية . أعطاه الحزبان التبرير الذي كان بحاجة اليه لإلغاء الديموقراطية .

ثم اخذت العلاقات بعد ذلك تتراخى بينه وبين الحزبين ، أراده كل منهما فرس رهانه وأرادهما مطيّة فلم تتم الصفقة ، ووقعت الواقعة يوم اغلقت جريدة البعث في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ وانتقل الحزبان إلى المقاومة السرية التي تميزت بدمجهما في البعث العربي الاشتراكي .

من يقرأ مبادىء الحزبين يجد ان الفكرة الواحدة هي التي تفرق بينهما ، غير ان تكوينهما مختلف جداً . وليس هذا بالبسيط ، فالفكرة المطلقة لا وجود لها في الواقع السياسي ، تتحقق عملا من خلال الذين تتجسد فيهم ، تنطبع بهم تتطور وتعيش ، بهم ومعهم .

نشأ العربي الاشتراكي في ظروف مباينة لظروف البعث العربي فهو حصاد حركة شعبية نشأت في مدينة حماة ، قديمة ، تتميز عما نشأ في بقية البلدان السورية ببذور اشتراكية .

كان الاستاذ علي الأرمنازي منذ مطلع القرن العشرين يعمل ضد الاقطاع ، وبعده الدكتور صالح قنباز ثم الدكتور الشيشكلي .

تأسس سنة ١٩٣٨ بقيادة الأستاذ عثمان الحوراني حزب الشباب ، سلف العربي الاشتراكي الذي آلت قيادته للاستاذ اكرم الحوراني .

منذ سنة ١٩٣٧ اخذت اوساط المدينة تتحدث عن المحامي الشاب اكرم الحوراني الذي انتسب سنة ١٩٣٦ إلى الحزب السوري القومي وانسحب منه سنة ١٩٣٨ لينضم إلى حزب الشباب . بعض يهاجمه

وبعض يبدي العطف عليه والاحترام له . بل لم يكن مجهولا منذ سنة ١٩٣٢ ، فقد تردد اسمه كثيراً بعد محاولة اغتيال رئيس المجلس النيابي السوري السيد صبحي بركات التي اشترك فيها مع زميله في الدراسة المرحوم عبد الباسط البني . وكان من الممكن ان يلقى نفس المصير لولا الصدفة المحض . فقد اتفقا ان يقوم بالعمل احدهما ويلجأا إلى القرعة حكماً بينهما ، كل منهما يريد ان يكون المنفذ . وقعت القرعة مرات ثلاث على البني والحوراني يرفضها مرة بعد الأخرى حتى لم تدع له مجالا . في ساعة التنفيذ لم ينطلق الرصاص من المسدس فقتل بركات عبد الباسط البني .

تعرفت على الاستاذ الحوراني سنة ١٩٤١ . كان يلح على نظرية الأرض التي تكون الأمة، فلم يخف علي انه متأثر بآراء الحزب السوري القومي ووجدت انه يهيمن على من حوله . لم يكن في تلك الفترة على شيء من الصورة التي اخذها عنه الناس فيما بعد . وقليل هم الذين يعرفون ان الطابع الفكري كان غالباً عليه وان بلدته ومن التف حوله فيها من الشباب اتخذوه قائداً فكرياً لهم . وقليل يعرفون عنه انه يحب الشعر ويرويه . من يذكر المقالات التي كتبها في جريدة اليقظة يذكر اللغة المتينة والبنية الهندسية فيها والجملة الرصينة . كان يقرأ كثيراً . ما كانت التجاعيد تغضّن وجهه ، كان يبدو عليه صفاء الذهن والعنف ، وهما شيئان قلّما انسجما معاً . خيّل لي وهو يتحدث ان بذور جنوحه عن عقيدة الحزب السوري القومي واضحة . وجدت في ضحكه توتراً يخفي طاقة كبيرة وقلقاً عصبياً .

عندما اصبح نائباً عن بلدته سنة ١٩٤٣ احتك بأوساط البعث وتميز في المجلس بجرأته ، وأخذ نجمه يلمع وتتسع حركته في مدينته واستطاع في زمن قليل ان يكون قائد ريفها وان يجمع حوله كل النقمة الشعبية. ورأى فيه الفلاح مخلصاً له من آلامه ووضعه الاجتماعي الشاذ . خاض المعركة بلا هوادة وبشجاعة . توسعت حركته في المنطقة بشكل مذهل ، وتميزت بنشاط مساعديه الذين كانوا يعملون بلا ونى يغلب

عليهم الطابع العملي الواقعي ، لم يتركوا وسيلة الا لجأوا اليها لخدمة الفلاحين ، وقطعوا الطريق على المتنفذين الذين بنوا سلطتهم على الوساطات في دوائر الدولة واستخدامها فسدوا عليهم المنفذ الرئيسي .

وجدت عندما قابلته للمرة الثانية سنة ١٩٤٨ أن فكره قد تبدل جذرياً عما في المرة الأولى . فهو يتأثر بتجربته اولا ، لا يغيب عنه الواقع ، يتشبث به ليستمد منه التعليل .

امتدت زعامته إلى مناطق اخرى للريف السوري خاصة بعد مواقفه من قضية فلسطين . سنة ١٩٥٠ كان أقوى زعيم فلاحي . وبدأ الكثيرون ينتظرون ان يكون رجل سورية الأول .

كانت العلاقات متشعبة متشابكة بين البعثيين والاشتراكيين ، يتعاونون في مناطق كثيرة ويتنابذون في اخرى . امتد البعث في مناطق لم يكن فيها وجود للعربي الاشتراكي والعكس بالعكس [1] . دخل الحزبان في مباراة لكسب الجمهور . كانت تربط الاعضاء في الحزبين صداقات قديمة والتعليل السياسي للأمور ، غير ان البنية لم تكن واحدة . طابع البعث فكري والاشتراكي عملي تجريبي ، وأغرب من ذلك ان كثيراً من عناصر البعث كانت غريبة عليه ، مكانها في العربي الاشتراكي ، كما ان بعضاً من الاشتراكيين لم يكونوا من حزبهم في شيء ، بعيدين عن عقليته .

بدأ كثيرون في الحزبين يتحدثون عن ضرورة التفاهم . واقترح بعضهم الدمج فكانت تتقارب القيادات أحياناً وتتباعد . كنت موقناً ان اتحاد الحزبين لا مندوحة عنه وما كنت أخفي أني ضده فلم يفهم أحد موقفي . كنت الح على ضرورة ابتعاد البعث عن الحكم ووقوفه من الحدث السياسي موقف المراقب ، ألا ينزلق فيه كثيراً لان مجرد دخول المعترك يلوث الفكرة وينأى بها عن قصدها ويشوه منطقها يجعله انعكاساً للحدث اليومي ويفقدها استقلالها . فالأحداث السياسية كانت

---

(١) انتشر البعث في ريف اللاذقية والعربي الاشتراكي في ريف حماة .

وما زالت مصنوعة خارج بلادنا كأنها القدر ، فلا بد من وجود حركة تحسن الانتظار الطويل وتبقى في منجاة عن المرحلة زمناً طويلا تعمق المفاهيم القومية لا تهتم بسعة انتشارها السطحي . كنت ألح على الاقتصاد الشديد بالانتسابات وأرى ان العربي الاشتراكي مرحلة تمهيدية ضرورية للبعث وان وصوله للحكم شيء هام بالنسبة الى مستقبل البعث فكان لزاماً علينا ان نساعده لا ان نذوب فيه . كان حزباً تكمن فيه كل القدرة على مقارعة الأوضاع في سورية عدداً وجرأة ومرونة. فقد كان رفضاً جدياً لها، ولكنه لم يكن من العمق بحيث يتجاوز المرحلة . لكن هذا الرأي لم يلق اي تجاوب واستمرت محاولات التقريب يتخللها احياناً حملات متبادلة وهدنات .

سنة ١٩٤٩ كنت عضواً في قيادة فرع حمص . دخلت المكتب فإذا بي افاجأ بحملة صاحبة على الاستاذ الحوراني فدافعت عنه . قال لي احد الاعضاء : لا نفهم موقفك، انت ضد الدمج وتدافع عن الاستاذ الحوراني . قلت انا ضد الدمج من خلال منطق بات غريباً على ما أرى ولكني احكم على الناس كما اعرفهم .

قال لي : من ليس معنا فهو علينا .

وقال آخر : أقرب الناس لنا أعداهم علينا .

هذه الحادثة شديدة التعبير منبثقة عن عقلية جديدة باتت فيما بعد خطراً على البعث جرّده من اكبر معنى له : الصدق ، عهّر مناضليه ومرّغ ماضيهم ومستقبلهم بالطين، فقد جاز في سبيل الغاية استخدام الوسيلة.

ثم وحدت المعركة، ضد أديب الشيشكلي، الحزبين فكان منهما مزيج عجيب اسمه البعث العربي الاشتراكي الغريب عن الحزبين ، انتهى به البعث الرائد والعربي الاشتراكي المناضل. ما عاد غير تجمع مهلهل فقد شخصية الحزبين. حقق نجاحات كبيرة ولكن السوس كان ينخره من الداخل.

لا أعني من ذلك اعتراضاً على الأسم ، فقد كان ممكناً أن يحمله أي منهما أو أي جهاز حزبي آخر ، وانما على نهاية منطقين كان كل منهما ضروري للمرحلة وولادة منطق مشوه غوغائي .

ضد الشيشكلي حتى الوحدة

كانت المعركة ضد الشيشكلي عنيفة اتسمت بالشجاعة والتوتر وبكثير من عدم الروية والظلم ، تنقصها الستراتيجية .

اتهم بتنفيذ مآرب الاستعمار ، بالعمالة والخيانة ، وزعت البيانات بشكل لم يسبق له مثيل ولم يات بعده . كان البعث العربي الاشتراكي بحاجة لفترة من الاضطهاد يقسو ويمتن فيها بنيانه ، كي يخوض معركة حقيقية . فقد كانت المعارك في سورية منذ الاستقلال حتى الان هزيلة وصغيرة ليس لها اي معنى عظيم ، سياسة سطحية ، لا تبدل جذور بنية الشعب ، لا تستهدف رغم ما تطرحه من شعارات بنيان وطن حضاري جديد ، قعدت عن ادراك معنى الثورة العميق، خيلت لها الدونكيشوتية ان التطاحن السلطوي هو ثورة .

اخذت تسقط في فترة العمل السري العناصر الضعيفة وتنتسب الى المنظمة الجديدة عناصر ممتازة من العمال والفلاحين والطلاب . وخدعت مظاهر القوة الفئات الاخرى فاخذت تلتف حول حركة التحرير التي الفها الشيشكلي وانقلبت بعد الى حزب التحرير .

كل المظاهر كانت تدل على ان يوماً قريباً يأتي وقد غدا فيها البعث العربي الاشتراكي جماهير منظمة رسخ وعيها العمل السري ومقارعة الدكتاتورية . كان ينبغي ان يفسح المجال للصف الثاني في الحزبين الوطني والشعب للانضمام الى حزب التحرير حتى ينقسم الشعب الى قسمين : الطبقة الحاكمة والطبقة العاملة الماضي: والمستقبل. ولكن ذلك كان يتطلب برودة اعصاب لم تتمتع به القيادة ونظرة اعمق واشمل الى مبرر وجود البعث .

كانت البيانات تترى. وغدا عملنا الرئيسي نحن البعيدين عن العاصمة توزيعها . فقد كانت من الكثرة بحيث لا يمضي اسبوع الا وياتينا بيان . اما في المدن فقد كانت المقاومة ضارية تحمل البعثيون كل مسوؤلياتها. وشدد الشيشكلي قبضته وازداد عنفاً فما كان الذي يستسلم بسهولة . وعرفت السجون تطوراً في مأساة التعذيب . كان البعثيون وحيدين في المجابهة . لم نكن نضيع الوقت . كنا نعقد الاجتماعات السرية ونلقي المحاضرات وكاننا في العلن وجدناها فرصة ملائمة للاتصال بالشعب الذي اولانا من الحب والعطف ما لم نكن ننتظر ابداً . كان يحس اننا نتعذب من اجله واخذت الفئات الاخرى تنهار سريعاً وتتخلى عن العمل السياسي .

دعا الحزب الى جبهة وطنية. وعقد مؤتمر سياسي عام في حمص صدر عنه بيان يحدد موقفها من الرئيس الشيشكلي فثرنا عليه ، نحن الصف الثاني ونقدناه بمرارة . لم نستطع ان ندرك ابداً معناه ولا جدواه ، اعتبرناه خطأً فاحشاً اعاد اعتبار الحزبين الشعب والوطني للوجود بعد ان باتا على مشارف النهاية ، بعثناهما من الموت . ذهب كثير منا الى ان التعاون مع الشيشكلي افضل .

بعد هذا المؤتمر اخذنا نتصل بالمؤتمرين نطلب منهم المساعدة في العمل. كنا نطرد من عندهم طرداً، اعتبرونا مجانين اغبياء ، من يقترب منا تكويه النار . اما نحن فقد كان الامر الحزبي كل حياتنا ننفذه دون اعتراض رغم عرفاننا في كثير من الاحيان انه خطأ .

في بداية ١٩٥٤ بات حكم الشيشكلي ناضجاً للسقوط . وجاء الانقلاب الذي اعلنه النقيب (آنئذ) مصطفى حمدون ضربة الرحمة .

عقد في اوائل اذار مؤتمر ثان في حمص للمؤتلفة قلوبهم ضد الشيشكلي لاقتسام التركة ، وجئنا نحن البعثيين وعلى وجوهنا ابتسامة النصر العريضة نبحث عن مكان الصدارة واذا بنا نستقبل بجمود واحتقار يكنسنا ويطردنا . ودخلت القيادة في دوامة السياسيين القدامى الذين لم يتعلموا شيئاً من التجربة، وذر قرن الخلافات بين القيادة نفسها بشكل لم يعد ممكناً اخفاؤه على الحزبيين . وقد علمنا فيما بعد انها لم تنقطع ولم تتوقف لحظة

واحدة في فترة العمل ضد الشيشكلي . كان الاساتذة الثلاثة : ميشل عفلق واكرم الحوراني وصلاح البيطار في معركة ثلاثية لم تنقطع ابداً .

بعد مؤتمر حمص الثاني وعودة الرئيس هاشم الاتاسي الى قصر المهاجرين وتأليف وزارة حيادية ، اعلن عن انتخابات لمجلس نيابي فوشح البعث ثلاثين مرشحاً بعد مداولات في اوساط القيادة ومناقشات برزت فيها عقدتا البعث العربي والعربي الاشتراكي .

طرح اسمي فيما طرح على بساط البحث ولم تكن في نيتي من قريب او بعيد ان اراني خاطباً ود الناخبين او نائباً . طلبت من قيادة الشعبة ان ترشح اخر ففعلت . ودرس الاسمان فتبناني البعثيون وتبنى صديقي الاشتراكيون. وبعد اخذ ورد طويلين عريضين نجحت انا. عند ما علمت وصديقي بذلك لم نفهم كيف تجري الامور . كانت اكثرية الصف الثاني عازفة عن كل غرور ، وخاصة اولئك البعيدون عن مجالات الخلاف . لا يهتمون الا بالقضية .

جابه مرشحو البعث حملة لم يعرفها تاريخ سورية من قبل ، جردت فيها ضدنا كل القوى : الاحزاب القديمة وتكتلاتها العشائرية ، ورجال الدين واجهزة الدولة . ورأينا من التزوير العجائب ، غير ان الجيش كان يدعمنا حينما يتيسر له . نجح منا في النهاية سبعة عشر نائباً .

بتنا اذن شيئاً جدياً في تاريخ المنطقة تقارعه القوى وترى فيه خطراً عليها . ونما الحزب بعد الانتخابات نمواً لم نستطع تنظيمه واعداده فالإطارات اقل من الجمهور ، والقيادة في شغل عنه بالمعركة السياسية والخلافات الداخلية . وظهرت أخطار الفراغ العقائدي وأخذنا نكرّر أقوالنا وبدأ الحزبيون يحرجون المسؤولين بالحاحهم على آراء واضحة وايديولوجية . كان كل منا يشرح فكرة البعث على هواه وحسب مزاجه. بعضنا اتخذ مظاهر الفيلسوف وتخلّق بأشكاله وتزيى بمسوحه دون منهج فلسفي . اذا تحدّث أحدنا قال له عضو ما ولكن الاستاذ فلان ذهب غير مذهبك ، فنجيب بأن التنوع شرط للازدهار . وذلك صحيح عندما يكون هنالك عقيدة . ولكن التنوع الشفوي الفوضوي لا يبنى عقيدة باقية بل

يشوه حتى الشعارات القليلة التي بين أيدينا . وهكذا ظلّ البعث بلا أيديولوجية ، شعارات قلقة ، لم توضح لمحاته الاولى وبذوره فانحرف الى حزب سياسي نهائياً . وباتت الاجتماعات الحزبية لا تعدو ان تكون شرحاً لمقالات الجريدة والنشرات الداخلية السياسية الضحلة. وحافظ بعض منّا بصعوبة على نهجه بأن يظل البعث حركة ثقافة عامة، مؤملا ان يأتي جيل يصوغ الافكار الشاردة في عقيدة ثورية .

طرح الحزبيون في الاجتماعات أسئلة عن مفاهيم الحزب الاولى : ما هي الاشتراكية العربية ؟ ما هي حرية البعث ؟ ما هي وحدة البعث ؟ ايهما سابق الوحدة ام الاشتراكية وكيف ؟ ما معنى كلمة جماهير ؟ ما هو الصراع الطبقي عند البعث ؟ وأهم من كل ذلك ما هو البعث ؟ كانوا يريدون ان يفهموا من هم وما هم، مثلهم مثل المؤمن الذي يسأل عن دينه وقد انسربت الشكوك الى قلبه فيطلب اليه ان يؤمن فقط .

ما زال السؤال قائماً حتى الان ما هو البعث ؟ لم تجب القيادات أبداً ، رغم تبدل الوجوه والزمان ولا أظنها قادرة على ان تفعل ولو استطاعت لدلتنا على هويتنا ولعرفنا من نحن ولما حار فينا البشر وحرنا في انفسنا كل هذه الحيرة . كنا استطعنا تقييم سلوك الحزبيين وحكمنا لهم او عليهم . لقد تذرعت القيادات بضيق الوقت وكثرة المشاكل . ولكننا لو حسبنا ما قضته من عمرها ، على كل افتراقاتها ، في « الدردشة » والاسترخاء الحالم الغيبي لوجدنا ان الاجتماعات التي لا معنى لها أخذت من عمرها أضعاف ما أخذته الايديولوجيا واني لأذهب أبعد من ذلك فأسأل : هل كانت القيادات مؤمنة بهذا الحلم الرائد الذي اسمه البعث ؟

ان إلحاح الفكرة على المؤمن لا يبيح له ان تطرف عينه عنها ، يظل يراها بقلبه وبصيرته، يعيش منها فتعيش به ومعه ، لا يرى سواها، تتألق في ضميره فيتألق بها وتغدو حياته عطاءً سخياً يتدفق بأنوارها . ان حب المؤمن عشق صوفي فعلا وفكرا، وما كسل المفكر غير بيّنة لا تدع شكاً في أنه دعي .

لم تستطع القيادات أن تقول ما هو البعث لأنها قصرت عن ادراك

معناه ، لم تحملها قواها الضعيفة الى ارض الفكر المجرّد وآماده الفسيحة . ظلّت تتعلّل ثلاثين سنة بالتوافه حتى ليعتقد المرء انها اعتبرتها شيئاً من الاشياء ، سقط متاع وشعار مناسبات متى تفرغت للوحي جاءها عفو الخاطر ، والمؤمن يجمع نفسه على انتظار الرؤيا الكبيرة ينسى على روعتها كل علاقات البشر ، اذا غرف من ينبوعها جاؤوا اليه فآمنوا معه .

ولقد جاء الحزبيون على نداء غامض وارادوا ان يدركوا سر التفاهم حوله ، ولكن السؤال ما زال قائماً منذ حوالي ثلاثين سنة : ما هو البعث؟

لقد ظل حتى الان نداء جاء به الغيب ، فيه رجاؤه وغموضه ، استباحت الوصولية عبر تاريخه عدم وضوحه فولغت حين أتيح لها في السلطة والدم .

لم تؤت الفكرة بعد من يجلو معالمها فيجعل منها قضية شعب ووطن ، ظلّت غيبا تتجمع حوله قوى شعبية تحس احساساً عضوياً بالهدف ، تتخيله ولا تدركه ، تلتف حوله مؤملة ان يكون المنقذ وهي على ترقبها منذ سنين حتى استحال الانتظار يأساً .

كان فشل الشيوعية سبباً مباشراً لنجاح البعث ، فقد فتحت عين الشعب على مأساة وضعه الاجتماعي . ولكن سورية وقفت من الاممية الشيوعية موقف الريب ، كلما غلت تلك نفرت هذه . وجاء البعث ينادي بحلول اشتراكية وقومية عربية فنجح حيث أخطأها النصر . ولكنه نجاح سلبي موقت ، فالمقارنة بين مذهب كامل وبذور مذهب ظلت على وعد الجنين ليست الى صالح الحزب ، لان الشعب يريد ان يعرف أخيراً هذا الوليد المهدي الذي هو البعث .

كان في الجيش تياران رئيسيان : البعث ورفاق الشيشكلي ، كلاهما يتربص الدوائر بالاخر . ولكن احداً لم يكن يشك في ان كتلة البعث هي الاقوى ، فأعطى ذلك دفعاً قوياً للحزب .

وانتشرت الخلافات الداخلية فأخذت تتسرب رغم محاولات الكتمان الى صغار الاعضاء . وتحزب كل فريق لحزب داخل الحزب فحاولنا ضبطها دون جدوى : كان استمرارنا نوعاً من المكابرة .

في اوائل سنة ١٩٥٥ استدعيت لدمشق . جهدت في حياتي الحزبية ان

أكون في منجاة عن الخلافات وحافظت على هذا الموقف حتى الساعة ، لم أتدخل بها أبداً . كان كل فريق يظنني مع الاخر وسبب لي ذلك كثيراً من المشاكل . كانت معركة التثقيف ، تلهينا نحن البعثيين الاوائل عن كل شيء آخر . لم نكن نفهم لماذا يختلف بعثيان حقيقيان . ساعة كتابة هذه السطور أعود الى نفسي فالقي السؤال نفسه : هل يمكن ان يختلف بعثيان حقيقيان ؟ لا اظن أبداً . ان الايمان برسالة يسمو بحاملها عن كل ما هو ارضي . ان العشق العميق يحمل على راحته العشاق الى ارض لا يرون فيها غير الحسن والجميل .

كنت لا اغادر القرية الا نادراً وابتعدت عن الوسط الحزبي خارجها. ما كنت احتمل رؤية البناء الذي شدناه بعواطف كبيرة وعذاب كبير يتهدم بأيدي الحزبيين . فرغم مظاهر القوة والسيطرة على الرأي العام كان السوس ينخر عظمنا .

بقيت في دمشق ثلاثة أيام وكانت النية متجهة الى انتخابات لمؤتمر قطري. وفهمت ان قيادة المعارضة في المؤتمر موكولة الي ضد الاستاذ أكرم الحوراني. وسمعت من الاعضاء في ندواتهم التي تعقد في مكتب الحزب والبيوت ومقهى الهافانا وغيره من المقاهي اتهامات عجيبة غريبة : سمعت من يقول ان الاستاذ عفلق جاسوس انكليزي، والاستاذ الحوراني فرنسي ، والاستاذ البيطار لاكثر من دولة ، كل من انحاز لاحدهم جاسوس بعين الآخر أما عن اشاعات السرقات والاتهامات الاخلاقية فحدث ولا حرج . كان اذن نجاحنا مزيفاً ، فقد غدا الحزب مدرسة للشتيمة كان مكتب الحزب في قريتي مثلا بالانضباط والطاعة يحس الداخل اليه رغم كل مظاهر الفقر انه في كنيسة او جامع ، لم يسمح عضو فيه لنفسه مناقشة أمر ، روح القطعة العسكرية مهيمنة ، التنفيذ اولا .

في فترة الانتخابات النيابية (١٩٥٤) لاحظت بداية الخلل. فقد بدأ الاعضاء يناقشون ويعترضون، أما بعدها فقد أخذ الامر ينذر بان الخلل عام لا يمكن ان ننجو بالشعبة في قريتي منه .

عدت من دمشق حزيناً يائساً واجتمعت مع قيادة الشعبة فاقترحت

عليها تقديم مذكرة للقيادة ننبه فيه الى الخلل ونقترح حلولا يخرج فيها الحزب من دوامة الضياع ، فكانت من ٢٥ صفحة فولسكاب. وعلمت فيما بعد ان القيادة لم تقرأها وان بعض الاعضاء عثروا عليها صدفة فنسخوها وتداولوها في اكثر فروع الحزب. وهي تشتمل على نقد للنظام الداخلي الذي وضع في سنة ١٩٥٤ ، واقتراح بالغاء الانتخابات فيه على مستويات الحلقة والفرقة والشعبة والفرع واقتصارها على المؤتمرات القطرية والقومية ، وتحديد مسؤولية اعضاء القيادة بأن يكلف كل فيها باختصاص هو مسؤول عنه وقائد فعلي له ، وإلغاء المكتب الذي تختفي وراءه هوية العاملين فيه ، وقيام المسؤولين بتعيين مساعديهم فتكون المكاتب تنفيذية ، وانشاء محكمة تبدأ بمحاكمة المسؤولين عن خلل الحزب .

في نهاية المذكرة قدمت استقالتي وعلقتها على قبول القيادة ، فلم يأتني جواب حتى الان . لم ارشح نفسي للمؤتمر وطلبت من الاعضاء ان يرشح احد نفسه فلم يفعل احد ، وبقي مقعد السليمية شاغراً سنتين .

لا يجد القارئ المتتبع لمصادر الحزب أية اشارة لمؤتمر سنة ١٩٥٥. فقد كان فضيحة سيطر عليه جو غوغائي فقدنا فيه كل ميزاتنا .

ورغم كل ذلك حقق الحزب نجاحات هامة . فقد صدر في ١ حزيران ١٩٥٥ قانون للعمل يعتبر خطوة الى أمام . واستطاع ان يسير بسورية في مخططه السياسي الذي قاوم الاحلاف ونهج مع مصر سياسة وحدوية . واستطاعت سورية ومصر الحصول على اسلحة من الشرق فكان ذلك ايذاناً بسياسة جديدة تتجه اليه ، تتحرر من الغرب وتدخل ميدان الصراع بين الشرق والغرب . بدأ يأخذ سمعة عالمية وخاصة عربية ونمت اتصالاته وبات له فروع في كل الاقطار العربية . تبدو هذه الكلمات قليلة بسيطة ولكن الوصول الى هذه النتائج كان يقظة وطنية ، نوعا من المعجزة . في ايار ١٩٥٦ اتفقت احزاب الشعب ، الوطني ، والبعث على ما سمي بالميثاق القومي نتج عنه حكم التجمع القومي الذي لعب فيه الحزب دوراً أساسياً. فقد كان عصب هذا الحكم ،ولكن انتقادات وجهت اليه من الحزبيين الذين رأوا فيه تعاونا مع احزاب تتآمر على منطق الحزب السياسي ونهجه .

كانت هذه الفترة تسير في خط بياني عجيب يرتفع الحزب بالمعركة حتى يتألق ويهبط حتى يصبح عادياً . وأظن سبب ذلك كله الفوضى الداخلية . كان في تصرفات القياديين فردية وخروجاً على النظام مستمراً انتقل حتى المستويات القاعدية ، بعض الاعضاء تعاونوا بعد اغتيال العقيد الركن عدنان المالكي مع أجهزة المخابرات دون الرجوع الى القيادات . وعمت موجة انتهازية أصبح من الصعب ايقافها ومع ذلك كانت فترة مجدية حررت سورية من كل القيود والارتباطات .

كان نجاح الاستاذ رياض المالكي في دمشق واحمد الحاج يونس (غير حزبي) في حمص دليلا قاطعاً على ان الحزب قادر للوصول الى الحكم بطريق ديمقراطية .

في الجيش جرت محاولة انقلابية (محاولة قطنا) نجحت وكادت تنتهي بوضع الحكم في يد الحزب، لولا ان القيادة رفضتها وأكدت على الوسائل الديمقراطية مهما طال الزمن .

في مهرجان الجلاء الذي أقامه الحزب سنة ١٩٥٦ طرح مشروع الوحدة مع مصر بعد تمهيد لعدة مقالات من قبل الاستاذ ميشيل عفلق. حتى تأميم القناة كان الموقف سلبياً من حكم عبد الناصر ، فقد جعلتنا علاقاتنا السابقة بالعسكريين (من حسني الزعيم الى الشيشكلي) نشك بنياتهم وطاقاتهم. ولكن الرئيس عبد الناصر فرض نفسه على العرب جميعاً وخاصة بعد حرب ١٩٥٦ التي قادها بذكاء نادر وعرف كيف يستغل كل الظروف والطاقات ، الخلافات الدولية ومقاومة الشعب .

في جلسة ٦ تموز ١٩٥٦ في المجلس النيابي التي ذابت فيها الخلافات تجاوبا مع الحماس الشعبي، أقر البدء باجراء مباحثات مع مصر لاقرار اتحاد بين البلدين .

كانت الاتصالات تجري بين القيادة وبقية المسؤولين في الحزب قبل ذلك لأخذ رأيهم وما كان ليعترض احد . كنا نطرح سؤالا واحداً :

والحزب ؟ كنا رغم كل شيء نرى فيه ماضينا وشبابنا كله ، نحبه رغم كل أخطائه . كان بيننا علاقة انسانية .

أجابت القيادة انه لا بد من الغاء الحزب في سورية انسجاماً مع الغاء الاحزاب في مصر، بانتظار انشاء تنظيم شعبي جديد تكون نواته وقياداته من الحزبيين . اكدت القيادة ان الرئيس عبد الناصر يعتبر نفسه حزبياً . سمعنا اشياء لم نستغربها آنئذ ولكني عندما أعود لها الآن يغلبني الضحك .

كان لسان حال الحزب ما نشرته البعث في ٢٢ حزيران ١٩٥٦ تقول فيه : « وهل يماري أحد بان حزبنا سوف لا يسجل في الحكم انتصارات حزبية ، انما ستسجل المصلحة القومية أعظم الانتصارات وهذا ما تعمل له دوماً الاحزاب العقائدية . »

بات الرئيس عبد الناصر زعيم البعث القومي الحقيقي، والبرقية التي أرسلها الحزب في ٢٩ حزيران ١٩٥٦ شاهد على ذلك : « سيادة الرئيس عبد الناصر — مصر

«لم يقتصر انتخابكم على اصوات الشعب العربي في مصر، بل شارك فيه كل الشعب العربي ، المتحفز للحياة والحرية والوحدة .

«حررتم مصر من الطغيان والفساد والاستعمار ، واستجبتم للاتحاد العربي الثوري وجسدتموه ، فحققتم تحولا تاريخيا في حياة مصر والوطن العربي كله .

« الشعب العربي يترقب متابعتكم للخطوات التي بدأتموها، وهي السير بمصر نحو تحقيق العدالة الاجتماعية والديمقراطية السليمة ، والتأييد الفعّال للنضال العربي في كل مكان ، والبدء بتحقيق الاتحاد بين مصر وسورية كنواة للوحدة العربية المتحررة الشاملة . »

لا اظن احداً ممن يعرفون اسلوب الاستاذ ميشيل عفلق يشك في ان البرقية من كتابته . ومن عرفه يقدر هذه الكلمات التي تعني كل شيء عنده : تحقق المثل الاعلى على الارض في انسان عربي .

عاد البعثيون الى طبيعتهم : شعراء صوفيون ظنوا زمناً أنهم سياسيون .

من يقرأ ما كتب في تلك الفترة يجد البعث على سجيته، وحدوي اولا وحدوي مطلق : « لهذا تجيء الوحدة جمعاً لطرفين من أطراف شعب واحد مجزأ وتعبيراً عن ارادته وتتويجاً لكفاحه وتدعيماً له ودفعا الى الامام . لهذا السبب لا يمكن لهذه الوحدة الا ان تكون ايجابية بناءة ما دامت الارادة الشعبية في القطرين هي التي املتها وما دام الكفاح المشترك ضد الاستعمار والصهيونية هو محتواها كما أثبتت الاحداث ، وما دامت غايتها استكمال وحدة الامة العربية وتقدمها والقضاء على الاستعمار وتحقيق السلم والصداقة بين جميع شعوب العالم والسعادة والرفاهية واطراد التقدم للانسانية كلها . (البعث ٢٦ كانون الاول ١٩٥٨) .

ويكتب الاستاذ ميشيل عفلق في ٨ شباط ١٩٥٨ : « ولئن جاءت هذه الخطوة في طريق الوحدة الكبرى فريدة في نوعها من حيث سلامة الشروط وثورية الاتجاه وديمقراطية التحقيق ، فلأن مفهوم الوحدة الذي قدر له ان ينجح كان نقيضاً للمفهوم القديم الجامد المتناقض ، فلن يعتبرها شيئاً يتحقق من نفسه وشيئاً منفصلا عن حرية الوطن وسعادة الشعب وتقدم المجتمع بل اعتبرها ثورة تحتاج الى خلق وتنظيم ونضال ، وان فيها تتجمع وتتفاعل اهداف الامة العربية في مرحلة بعثها الجديد . » ... ويقول الاستاذ في نفس المقال: « هي ثورة انسانية لانها ثورة القومية بمعناها الايجابي العميق الخلاق » مع ان الاستاذ كان اكثر البعثيين هدوء أعصاب ووضوح ذهن في تلك المرحلة ، في حديث له سنة ١٩٥٦ عن الدستور المصري : « النوع الصادق هو ما حدث في مصر (يعني الانقلاب) والنوع الزائف هو ما حدث في سورية » ويحلل الوضع في مصر فيصل الى نتائج واحكام نستغرب ان يكون وصل اليها منذ هذا العهد البعيد .

بعد قرار المجلس النيابي ذهبت الوفود للقاهرة تخطب ود الرئيس فطلب فيمن طلب لجنة من الضباط تمثل كافة القطعات والاتجاهات يرئسها اللواء بزري رئيس الاركان، فذهبت اليه وقد أقرت مشروع الاتحاد .

وعندما اجتمعوا بالرئيس وأخذوا يتداولون في الصيغة وقف المقدم أمين الحافظ (آنئذ) وقال : « بيننا وبينكم حائط يجب ان نهدمه الساعة ، لماذا الاتحاد ، لتكن وحدة . » ووافق الجميع .

يقول لي السيد عبد الحميد السراج في حديث معه : « عندما خرجنا من عند الرئيس وذهبنا للفندق بدأ التآمر على الوحدة » وأحببت ان يفصّل ما يعني فرفض . ولكن منطق الاحداث وكيف تطورت فيما بعد يدل على انه كان على حق .

في ١ شباط اجتمع مؤتمر قطري للحزب عرضت فيه القيادة قرارها بحل المنظمة في سورية فوافق بالاجماع . واحس الحزبيون للوهلة الاولى ان عبئاً ثقيلاً نزل عن كاهلهم. فقد ارهقتهم الخلافات في آخر أيام الحزب حتى لقد بات النضال داخله فقط .

رأت الاحزاب القديمة انها تجنبت خطر الزوال على يد البعث او الجيش واملوا بمغنم هو الوحدة .

وظن العسكريون انهم سيصبحون عسكريين أخيراً .

عهد الوحدة

في الثامن عشر من تموز ١٩٦٣ قال الرئيس عبد الناصر فيما قال في تلك الجلسة الطويلة : « كانت الأمور ماشية في مصر ، صرت اقضي ثلاثة ارباع وقتي في حل المشاكل السورية ، كنت اقول يا ربي منين جاني المرض ده ... »

بعد الاستفتاء واعلان الجمهورية العربية المتحدة جاء الرئيس زائراً عاصمته الثانية فاستقبلته دمشق استقبالا لم يشهده تاريخ تلك المدينة ولا تاريخ اية مدينة اخرى ، اغدقت عليه كل دفئها وحنانها وكل ماضيها ، سكنت سورية شوارع دمشق وقبع البشر لا تحصي لهم عداً أمام قصر الضيافة كي يشاهدوا فارسهم في القرن العشرين ، السعيد السعيد من دخل القصر فصافحه فنزل يدل على الآخرين بحسن طالعه . ورويت عنه حكايات من الخرافة ، كل ما حفظه الدمشقيون من تاريخهم ألبسوه حلته ...

نزل الرئيس متخفياً وذهب إلى الأحياء الشعبية يتفقّد الفقراء ، خرج من قصر الضيافة من باب خلفي ، لم يره أحد ... وصل إلى مسجد الشيخ محي الدين قبل المؤذن ، وفوجىء هذا بالنور على رأسه ... سمعت مثل هذه القصص من الناس .

بات الرئيس اسطورة وطنية شعبية ملأت خيال البسطاء وقلوبهم . كشفت دمشق عن سرّها وسريرتها : مدينة الوحدة العربية .

لن أتكلم عن نظام الوحدة وحكمها إلا ما كان له علاقة بالبعث، الذي ظل حزباً في كل الأقطار العربية ما عدا سورية، وعن البعثيين فيها.

دخل البعثيون القياديون الحكم منذ الوزارة الأولى ما عدا الأستاذ ميشيل عفلق الذي بات انساناً قومياً ، قائد الحزب وحده . رأيته في أيام الوحدة الأولى فوجدته متفائلا ، نشيطاً ، معتداً ، مؤمناً ان معجزة التاريخ لم تعد حلماً غيبياً بل واقعاً أرضياً .

أخذنا نحن قدامى البعثيين بعد ان انتهت موجة الحماس نبني علاقات جديدة مع المجتمع ، نراه بعين جديدة ، وجدنا انفسنا فيه غرباء ، تغيّر العالم كله ، أخذنا قليلا قليلا نجد أنفسنا بلاجدوى. كانت مكاتب الحزب في السر والعلن حياتنا ، نحقق فيهاوجودنا وانسانيتنا، صرنا مناضلين متقاعدين كثيري الكلام عديمي النفع ، سيطر علينا ذهول الفراغ ، جهدنا في ان نعيش حياة الآخرين فوجدنا انفسنا غرباء عنهم .

عند تشكيل الوزارة الأولى خفّ حماس الكثيرين من الطامعين بمقاعدها للوحدة وجردوا حملة عنيفة على الأساتذة الثلاثة بحجة أو باخرى وأصاب الرئيس عبد الناصر ونظام الوحدة منها رشاش . ثم نهد البعثيون خفافاً وثقالا إلى المغانم حتى سمّاهم الناس بمنتفعي الوحدة (تيمنا بمنتفعي القناة) .

في بداية عهد الوحدة تشابكت أجهزة الدولة وأجهزة الحزب في الاقطار العربية وخاصة في العراق ، أما في سورية فقد اعتمدت على كثير من البعثيين وخاصة في الصحافة . ورأينا بعض الضباط البعثيين ينتقلون إلى المخابرات وهي اكثر الاجهزة حساسية . وكانت جريدة «الصحافة» في بيروت ناطقاً شبه رسمي للدولة .

أخذت العلاقات قليلا قليلا تصاب بشيء من الفتور بعد شهور الوحدة الأولى بين الرئيس والبعثيين، فقد عملت أجهزة واشخاص كثيرون على التشكيك بينهما. كان البعثيون يريدون حكم القطر السوري لهم وحدهم يحققون فيه كل اهدافهم وان يلعبوا دوراً أساسياً في توجيه دفة دولة الوحدة . ورأى الرئيس أنهم يشتطون ووجد لدى الآخرين من الطاعة ما لم يجد عندهم .

ثم بدأ قرن الخلاف يذر مباشرة بعد ثورة العقيد الشواف التي اعلنها في ٨ آذار ١٩٥٩ . أقيمت في سوريا مهرجانات كثيرة خطب فيها وزراء بعثيون كانت كلها تأييداً للرئيس عبد الناصر . غير ان الاحاديث الخاصة كانت مختلفة .

لم يكن يشك أحد بعد الوحدة بين مصر وسورية من انضمام العراق اليها فقد كانت كل الشروط ملائمة. ونوقشت في بغداد فكرتا الوحدة والاتحاد الفيدرالي غير ان اللواء قاسم ما عتم ان اخرج من العراق عبد السلام عارف ثم سجنه وانقلب على البعثيين واعتمد الشيوعيين في حكمه ، فقام العقيد عبد الوهاب الشواف بمحاولة لقلب حكمه فقتل على اثرها ومثل به وعلقت اعضاؤه أجزاءاً على أخشاب الهاتف. وهاجم الشيوعيون سكان الموصل واعملوا بهم قتلا .

وأخذ البعثيون يدعون ان الرئيس عبد الناصر اعتمد القوميين العرب وتخلى عن البعثيين .

إبان محاكمة الزعيم الطبقجلي ورفاقه وما قام به البعثيون من محاولات دأبت اذاعة القاهرة وصوت العرب والصحافة على تسميتهم « بجماعة من القوميين العرب » و « بعض الشباب القومي العربي ». لم تسمهم باسمهم ، فكان البعثيون يمتعضون رغم العطف والتأييد اللذين كانت تحيطهم الاذاعة بهما .

في اول حزيران عينت مديراً بالوكالة للدعاية والأنباء وسلمت مهمة المدير العام بالوكالة، بانتظار صدور مرسوم جمهوري لم يصدر فيما بعد ، وبتّ قريباً من الأحداث .

جاء قبل ذلك تشكيل الحكومة الثانية بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ، فانتقل الأستاذ الحوراني والبيطار إلى القاهرة فلم يرضهما ذلك ، ولكنهما نفّذا .

ثم أتت انتخابات الاتحاد القومي التي فجّرت الأزمة .

في الأيام الأولى للترشيح جاءني بعض رفاقي القدامى واقنعوني بترشيح نفسي في منطقتي ، وكنت مقرراً ألا افعل. وما ان ذهبت اليها

وقدمت الطلب حتى فوجئت بجريدة الجماهير تعلن خبر انسحابي . ذهبت ازور الاستاذ ميشيل عفلق فإذا به يستقبلني بعاصفة غضب قائلا : وانت ايضاً تخون الوحدة ؟

لم افهم ما يعني ثم سألته ماذا يرى، فقال: « يجب ان تستمروا مهما كانت النتائج ، يجب ان ندلل على حسن نيتنا . » واستمر قدامى البعثيين .

كان يرى الاشتراكيون ان يبقى عدد محدود جداً في معركة الانتخاب وان ينسحب الباقون كي يظهروا للرئيس احتجاجهم على الطريقة التي يقوم عليها الاتحاد القومي ويبرهنوا على قوتهم الشعبية .

كان المرشحون من البعث لا يعلمون ما يفعلون ، ولأي من رفاقهم يستجيبون . جربت بكل الوسائل ان أفشل فما استطعت . وأخذت الاتهامات تكال جزافاً لكل من خاض المعركة . كان نصيبي منها انني عميل للمخابرات ، حتى لقد انطلت التهمة على كثيرين . وان أنس لا أنسى شابين من الجامعة ، من قدامى الحزبيين جاءا يطلبان مني تعيينهما في المخابرات . . . فغرت فمي مستغرباً وأكدت لهما كذب النبأ، فخرجا من مكتبي وأنا ارى في عيونهما انهما لم يصدقا .

بلغت الحيرة بالبعثيين حداً عجيباً . فهم غير حزبيين ولا وجود للتنظيم الحزبي ، حسب ظن اكثرهم ، ولكنهم كانوا يتصرفون وكأنهم حزب ، يريد أحدهم أن يسلك سلوكاً فردياً فلا يمكنه الآخرون . وفي الحقيقة لم يتوقف التنظيم في بعض المناطق مثل دير الزور .

في آذار ١٩٥٩ دعيت إلى اجتماع في حلب تبين لي فيه ان بعض القياديين قد عادوا إلى التنظيم ايضاً منذ شهور على شكل لجنة تتداول دراسة الأوضاع وتتخذ قرارات، ولكنها لا توسع نشاطها إلا إذا اقتضت الضرورة . وفي صيف تلك السنة انعقد مؤتمر للحزب الغى قرار الحل . عاد الحزب ولم يعد .

وهنالك ما هو افدح من ذلك ، فقد اخذ بعض الضباط البعثيين

يعد العدة لانقلاب ، واتصل بالقيادة يعلمها ان كل شيء جاهز فنهته عن ذلك .

كان يرى بعضنا ضرورة التمسك بالوحدة والدفاع عنها مهما كان الثمن، وكان يرى آخرون لزوم معارضة النظام والتمسك بها ولكنها كانت جديدة ضعيفة العود لا تحتمل أي هجوم ولقد ارتبطت بالنظام منذ قيامها حتى ليستحيل المساس بأحدهما دون الآخر . كان الموقف الوحيد الممكن هو الصمت وعلة البعثيين كثرة الكلام وتعقدت الأمور فما يستطيع أحد منا سلوك الطريق التي يمليها ضميره ولا سبيل رفاقه بل لم تعد لنا أية طريق . وانتقلت الفوضى إلى الحزب خارج القطر السوري وهأنذا أروي الحادثة التالية التي لا تدع مجالا للشك فيما اقول .

في اواخر ايلول سنة ١٩٥٩ زارني شاب عراقي قدّم نفسه باسم مستعار . قال لي أريد مقابلة العقيد « ط. ص » قلت : ولكني لا اعرفه .

فأجاب : الأمر هام جداً .

كان يبدو عليه القلق رغم مظاهر الهدوء . قال : « أنا « س » أظنك سمعت باسمي . » قلت : « نعم » .

قال : أنا مكلف بمهمة خطيرة وأوصاني رفاقي ألا أكتم عنك شيئاً . قررنا اغتيال عبد الكريم قاسم وجئت اطلب المساعدة . وطلب إلي ان آخذ رأيك بالموضوع .

قلت : هل القيادة القومية على علم بذلك ؟ فأجاب بلا، وأضاف ان هذا موضوع قطري .

قلت : على العكس ، هذا موضوع سياسي عربي وأنت مسؤول اولا امام القيادة القومية ويجب ان تأخذ رأيها . ولا انكرك اني شخصياً ضد الاغتيال رغم تأكدي ان قتل عبد الكريم قاسم يبدّل كثيراً في اوضاع العراق. ومن يدري ، فقد يكون التبدّل لصالح الشيوعيين .

قال : مهمتي ان اتصل بالعقيد « ط. ص » اولا وسأتصل بالقيادة القومية .

اتصلت بالهاتف بالعقيد فجاء إلى مكتبي وذهب برفقة « س »

وبعد ايام عاد هذا إلي يقول : القيادة القومية تعارض الاغتيال والذي أعرفه ان القيادة القطرية في العراق مصممة ولا سبيل للتراجع .

بعد ايام سمعت بأنباء الاغتيال وما جرّ على البعثيين في بغداد من مشاكل .

أصبحنا عنصر فوضى نزرعها انى حللنا . حكم الرئيس عبد الناصر لم يستطع ان يدرك هذا الرمز الذي اسمه البعثيون . يظن اننا منظمون ويظن اننا غير منظمين ، حار فينا أضعاف حيرتنا بأنفسنا .

أخذت الصحافة في العربية المتحدة تهاجم الحزب تحت شعار « إن القومية العربية ليست ملكاً لأي حزب... »

كتب الأستاذ مصطفى أمين مقالا في الأخبار يقول فيه وكأنه يمتدح البعثيين : « لقد خلعوا حزبيتهم كما يخلع المؤمن حذاءه على باب الجامع ... » وارادت الصحف الدمشقية نشره فمنعتُ وثارت الضجة . كيف أمنع مقالا في دمشق سمحت به الرقابة في العاصمة ؟

كنت أعلم ان كثيرين يعملون لبذر الشقاق بين الرئيس عبد الناصر والبعثيين ، لا حباً بهما ، او بأحد منهما وإنما للإطاحة بالوحدة فقررت ألا أفسح المجال حيث استطعت وتصرفت بعناد لم يكن يرضي الحكم ابداً وما كان البعثيون ليرضوا أيضاً . (١)

أخذت الاحداث تتتالى سريعة . وضعت صعوبات امام الاستاذ رياض المالكي جعلت استمراره مستحيلا . وتقدم ببيان رفع عن طريق مجلس الوزراء للرئيس عبد الناصر فأقيل. ثم تلى ذلك استقالة الوزراء البعثيين كلهم. وأخذ الرئيس عبد الناصر يهاجم الحزب وعقيدته هجوماً مقذعاً وقفت منه القيادة القومية موقفاً سلبياً قريباً من الأناة . ولكن البعثيين اشتدوا في التهجم على حكم الجمهورية العربية المتحدة . أذكر ان احد رفاقي زارني في مكتبي في الدعاية والأنباء وسألني

---

(١) وجدت عناصر التخريب مناخاً طيباً وأذناً صاغية لدى الرئيس و رأس حربة الهجوم لدى البعثيين حيث فاتتهم الجرأة .

عن رأيي في استقالة الوزراء البعثيين . أجبته : لقد انتهت الوحدة والسعيد منا في المستقبل هو من يبرىء نفسه من دمها .

لم يعمل البعث بصورة مباشرة منظمة ضد الوحدة ولكن موقفه السلبي، ونقد الاعضاء الدائم ، ساهم في التمهيد للانفصال [1] . لن يرضى عن هذا الرأي أحد ولكني وعدت القارىء بقول الحقيقة كاملة .

في حزيران ١٩٦٠ أصبحت عضواً في مجلس الأمة مع عدد من البعثيين . جاءني الأستاذ « أ . ن » يقول : أرى ألا نقسم اليمين قبل أخذ رأي القيادة . أجبت : هذا خطأ . أفضل ان نفعل فإذا ارتأت القيادة انسحبنا أو بقينا . ان الموقف الذي تقترحه خطير . وقررنا ان ندعو رفاقنا لاجتماع نتداول فيه الرأي، فقر رأيهم على ذلك واتصلنا بالقيادة فطلبت الينا البقاء ولكننا جوبهنا فيما بعد بموقف عجيب كلما قابلنا احداً من مسؤولي الحزب القدامى طلب منا الاستمرار والحملة علينا لا تقف. اما الحكم فكان ينظر الينا بعين الريب .

تركزت حملة البعث على حكم الوحدة بنقط رئيسية : المخابرات ، الحرية ، وجود قوات الطوارىء ، تحويل مجرى الأردن .

لا ادري ماذا يمكن ان يقول الآن أي بعثي عن هذه الأشياء !

في أواسط الجيش كان الموقف مختلفاً فهو اكثر اجهزة الدولة حساسية والكتل فيه واضحة ، المساس باحدها وبأي شكل من الأشكال يفضح نيات كثيرة ويوقظ المخاوف .

---

(١) لم يسجل على نفسه موقفاً صريحاً . عندما نقرأ البيانات السرية والتعليمات للأعضاء نجد الحزب يعلن دائماً تمسكه بالوحدة ولكن النقد كان أقرب الى الحملة منه الى الروح الموضوعية . وكانت اكثر النشرات سرية تصل الى الرئيس قبل أعضاء الحزب . سمعته فيما بعد حين يريد احراج البعثيين ويلومهم على موافقتهم يتحدث عنها ويعزو موقفه من الحزبيين إليها. وكان فوق ذلك حديث الأعضاء الشفوي في ندواتهم ومقاهيهم الذي كان أمضى سلاح ضد الوحدة . ويجدر بالملاحظة ان الحزب هو « شفهي » اولا، لعبت الثرثرة في تاريخه دوراً اساسياً .

أجزل السياسيون في مرحلة التحضير للوحدة الوعود ونقلوا عن لسان الرئيس عبد الناصر أشياء تأكدت من ان كثيراً منها كان من صنع الخيال .

كان العسكريون البعثيون يرون في الوحدة خطوة الثورة الأولى ، ثورة البعث وهي غامضة لم توضح معالمها الإيديولوجية فنسج كل بعثي لها صورة في خياله وانتظر ان تحققها الوحدة وأخذت تظهر فضيحة النقص الإيديولوجي . وتبين ان الحزب كلام كثير تستشف وراء وهمه فكرة غامضة غائمة السدوة والنسيج .

وحار الرئيس عبد الناصر ما يفعل بهذا التنظيم الذي لم يفتته قرار حل الحزب ، أطلعه على عوراته فقط وأقصى عنه القيادة وخلافاتها فازدادت علاقة الاعضاء العاطفية ببعضهم تماسكاً . ولعبت الأيدي الخفية بين الحزب الضروري لدوام الوحدة كحزب، وبين الرئيس الذي يرى في هذه الضرورة نفسها خطراً . اذا قوّى البعثيين ووضع امور الاقليم الشمالي بين ايديهم ، استمرت الوحدة وبقيت تحت رحمتهم إذا عنّ لهم نسفوها . ومن يسلم أمر التاريخ لنزوات تنظيم علاقته ببعضه ليس فيها اي شيء من الموضوعية التي يمكن ان يعتمد عليها رئيس دولة ؟

في تلك الفترة كان الرئيس – على ما سمعت – يقرأ لينين. ولا أنكر انني استغربت سنة ١٩٦٣ مدى اطلاعه عليه . ومن يدرس لينين يتردد في اقامة علاقة متينة مع البعثيين على رجرجة تنظيمهم .

لا يشك المراقب لأيام الوحدة الأولى ان الواقعة واقعة بين الرئيس والبعث . وأخذت منذ الأيام الأولى تظهر البوادر . كثرت اجتماعات الضباط وتساؤلاتهم، واتصلوا بالقيادة (قيادة الحزب) وأطلعوها على تصرفات داخل الجيش غير مرضية ، وأعلنوا شكوكهم حول المستقبل وطلبوا منها موقفاً صريحاً من الرئيس لا يترك مجالا للشكوك : الاستقالة والقاء مسؤوليات الحكم والمستقبل على عاتقه ، أو التفاهم على خطة

واضحة بينة لا لبس فيها وعدم ترك احتمال الخلاف وامكانية الشك بالنيات .

فضل السياسيون التريث واخذ الأمر بالهدوء . ولكن هذه الاتصالات لم تكن خافية على الرئيس وعلى اجهزة المخابرات . في ١٨ آب ١٩٥٨ نقل عشرة ضباط للقاهرة بينهم ثمانية من البعثيين فأحدث النقل تساؤلات كثيرة .

كان الرئيس أمام مسؤولياته : قائد الجيش الفعلي أم لا ؟ أما بالنسبة الى البعثيين فقد رأوا في النقل بادرة غير طبيعية وازدادت الاتصالات وكثر القال والقيل. وفي صيف ١٩٥٩ انتقلت دفعة كبيرة فيها العناصر الأساسية البعثية. وبعد قليل واتصالات تألفت لجنة سميت اللجنة العسكرية أعادت التنظيم الحزبي العسكري وهي التي حكمت سورية فيما بعد .

كانت هذه اللجنة متأثرة بمذاهب التنظيم الحزبي والقيادة الجماعية وكان ابرز اعضائها الرائد محمد عمران . عدد اعضائها ثلاثة عشر . كانت قراراتها سرية وظلت كذلك حتى الآن . وقد استطعت بحكم صداقاتي واتصالي بها إلى معرفة ما تخفيه .

يتساءل القارىء كيف ظلت مقرراتها سرية حتى الساعة رغم الانشقاقات الكثيرة التي حدثت فيما بعد .

سبب ذلك ان عناصرها الرئيسية لم تتنازل بعد عن مطامحها. وقد يبدل موازين القوى وعلاقة الحزب والحزبيين بهم اعلانها .

استطاعت الوحدة ان تفتت تنظيماً وحيداً من الكتل العسكرية هو تنظيم : احمد عبد الكريم ، طعمة العودة الله ، ، احمد حنيدي . أما التنظيمات الأخرى فقد عادت للوجود او بالاحرى لم تحل نفسها ابداً ، أعني ما يسمى بكتلة « الضباط الشوام » التي رئسها المقدم عبد الكريم النحلاوي، وكتلة الضباط البعثيين التي ظهرت على شكل تنظيمين : أحدهما عربي اشتراكي والآخر بعثي دعيت قيادته باللجنة العسكرية . ولا بد من الاشارة إلى ان افتراقهما بدأ عند عصيان قطنا .

كانت قرارات اللجنة بعد دراسة اوضاع الحزب هي التالية :

١ ــ تحديد مسؤولية حلّ الحزب واعتباره غير قائم حتى ما تبع في الأقطار العربية القيادة القومية . لان نواة الحزب وقواه الحقيقية هي في سورية ، فإن حله فيها يعني حلّ الحزب . واعتبرت ان استمرار القيادة القومية لا معنى له .

٢ ــ العمل بالنظام الداخلي وفسح المجال أمام التطور الحزبي لوصول قيادات جديدة إلى القمة فلا تقطع الطريق عليها القيادات الدائمة ، ورفض مبدأ الأبوة الحزبية .

(يعني ذلك فصل الأساتذة الثلاثة من الحزب فهم المسؤولون عن حلّه ، وايجاد قيادات جديدة .)

٣ ــ عدم التعاون مع من لا يدين بهذا الأسلوب .

٤ ــ عدم التعاون إلا اذا اقتضت الظروف المرحلية مع كل من تعاون مع نظام الوحدة .

٥ ــ انشاء الحزب من جديد .

باتوا اذن ، بنظرهم ، هم وحدهم الحزب . واعتقد ان هذه المقررات تجعلنا نفهم كثيراً من التصرفات التي حصلت فيما بعد .

٢٨ أيلول الى ٨ آذار

« والفرق واضح بين المناضلين والمغامرين ، فالمناضلون يخلقون النضال ويظلون مع ذلك أدوات خاضعة لقانون الحركة التي خلقوها ويحيلون كل قوى يكسبها النضال لأشخاصهم الى قوى تغذي الحركة نفسها وتعينها على الزيادة في الصبر والمقاومة وعلى السير القويم المتفق مع منطق الفكرة ، أما المغامرون فهم اولئك الذين يستهويهم النضال في مراحله الحماسية السهلة ، او يندسون في صفوفه دون ايمان ، حتى اذا نالوا قسطاً من الشهرة والنفوذ تبين لهم ان الانفلات من قيود النضال ومنطقه القاسي وطريقه الطويل ، يسمح لهم بالقفز في مضمار النجاح الشخصي وهذا ما يقودهم بسرعة مفاجئة الى التآمر والخيانة ، اذ ليس لهؤلاء من طريق وسط . »

ميشيل عفلق، ٤ كانون الثاني ١٩٥٠

صباح الخميس ٢٨ ايلول في الساعة الخامسة صباحاً استيقظت على صوت القنابل . فقد أحاطت قوة البادية بقيادة المقدم حيدر الكزبري ببيت المشير عبد الحكيم عامر الذي امر بعدم المقاومة.

ولست في هذا المجال قادراً على تحليل كل العوامل التي أدت إلى الانفصال . أكتفي بموقف البعث .

لم يكن موقف البعث موحداً : في بغداد وقفت قيادته القطرية ضد الانفصال واذاعت بياناً يشجبه . في دمشق كان البعثيون حيارى . وفي بيروت اذاعت القيادة القومية بيانين اعترفت بالثاني فقط . كل من يقرأه يفسره تفسيراً مختلفاً فهو ضد الانفصال ولكنه يشجب الوحدة . لجأت القيادة إلى التحليل في الوقت الذي كان ينبغي فيه الحزم . ان الظروف الحرجة تقتضي أقل ما يمكن من الكلمات ووضوحاً .

كان موقف البعثيين العسكريين غامضاً ما عدا موقف المقدم (آنئذ) محمد عمران الذي عرض على قيادة الجيش الأول القيام بعمل مسلح ضد الانفصال .

أما البعثيون الملقبون بـ « الناصريين » فقد تنادوا في أول خميس تلى خميس الانفصال إلى اجتماع عقد في بيتي قررنا فيه المقاومة وإعادة الوحدة ووضعت خطة التعاون مع الوحدويين الآخرين تحت اسم « الجبهة العربية المتحدة » وقبل ذلك قادوا المظاهرات التي قامت في سورية وخاصة في حلب .

كنا نعوّل كثيراً على الضباط البعثيين ، نقدّر انهم وحدويون رغم ما احاط بهم من وضع شاذ في فترة الوحدة وانهم سينضمون إلى المقاومة . عندما عادوا من مصر اتصلت بهم فيمن اتصل . وجدت وضعهم مائعاً رغم انهم يعدّون العدة لأمر. وبعد قليل سرح البارزون منهم في قائمة من ٦٣ ضابطاً اكثرها بعثي .

انتظرت ان يحدث تسريحهم ضجة ، ان يصدر قدامى الحزبيين بياناً ، ان يثار الموضوع في البرلمان . ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل . قررت ان اذيع بياناً بنفسي . اشتريت آلة كاتبة وأخذت اتدرب عليها حتى استطعت الضرب بصعوبة وكتبت البيان حتى اذا جاء دور التوقيع فكرت : البعث ؟ لم اكن مخولا بذلك ، لم اكن ضمن التنظيم . الضباط الاحرار ؟ لم يفوضني احد .

خطر لي ان اوقع : الوحدويون الاشتراكيون ففعلت . عند منتصف الليل كان في درجي رزمة . نزلت إلى الشارع فوزعتها .

علم الضباط المسرحون أني انا الذي كتبت البيان ووزعته فقدروا هذا الموقف واخذوا يعدّون العدة للاطاحة بالحكم. وحسبوا حساباتهم فوجدوا انهم غير قادرين على ذلك وحيدين . كنت ارى عدداً منهم يومياً ونتناقش حول الموقف . اقترحت عليهم التعاون مع الفئات الاخرى.

كان لا بد لهم من ضابط ذي رتبة عالية يستقطب حوله عناصر اخرى. واتجهت الانظار ، قبل التسريح ، إلى العقيد (أنئذ) امين الحافظ.

ولكنه نقل إلى الأرجنتين ملحقاً عسكرياً (بعد تسريح القائمة). وجرى اتصال به لرفض أمر نقله فلم يفعل. ولم يشأ ان يسجل على نفسه بادرة غير انضباطية فهو عسكري مائة بالمائة ينفذ اولا .

خرج العقيد جاسم علوان من السجن بعد توقيف استمر أربعين يوماً واخذ العسكريون الحياديون يتحدثون عنه كثيراً . واتصلت به فعلمت من حديثه ان اتصالاته كانت قليلة جداً مما يسهل المهمة . كان يعيش في قلق نفسي مرّ ولكنّه مصمم . ووجدت انه كان جديداً على العمل الانقلابي ، فهو من طينة العسكريين الذين يقومون بواجبهم فقط ، يعيشون في الثكنة وللثكنة. جدّي ، إنضباطي ، بعيد عن عقلية المناورة ، يحترم كلمته ولكنه لا يخلو من التردد .

اقترحت على البعثيين التعاون معه. وبعد مداولات وافقوا وتكونت قيادة عسكرية إلى جانبه .

كان لا بد من وجود جهاز شعبي مدني يتولى الدعوة كي يمهد لانقلاب عسكري. وأخذنا نتصل بقيادة الحزب ، ولكنها لم تتحرك . وفشلت كل المحاولات للعودة إلى التنظيم الحزبي . كان العسكريون اكثر الحاحاً على هذه الضرورة من المدنيين، فقد اخذت تكتمل استعداداتهم سريعاً .

عقد قدامى البعثيين الذين تعاونوا مع حكم الوحدة اجتماعات عديدة . كانوا امام امرين : الانتساب إلى الاتحاد الاشتراكي الذي أعلن عن تأسيسه الرئيس عبد الناصر ام العودة إلى الحزب . غير ان الحزب لم يعد إلى التنظيم وما كان ليقبلهم فيه (أو اكثرهم) لو فعل . والاتحاد الاشتراكي ما زال خطة لم تدخل حيز التنفيذ . فقرّ الرأي على القيام بحركة جديدة هي حركة مواقف ، غير دائمة تنضم لاحدى الحركتين .

اتفقنا على مبادىء بسيطة لا تخرج عن نطاق الحركات العربية القائمة غير ان نظامها الداخلي اكثر مرونة وواقعية ، غير معقد مبني على نظرية اشتقاق الخلايا وتحمل المسؤولية والقدرة على العمل .

القائد هو من استطاع ان يوسع حلقته، والانتخاب وقف على المؤتمر الذي ينتخب القيادة . (النظام الداخلي الذي كان متبعاً في السليمية) .

في البدء قررنا الاعتماد على قدامى البعثيين لخبرتهم وثقة القيادة بهم وكيما نحافظ على وحدة الاتجاه وما وصلت إلى القيادات عناصر اخرى الا بعد ان اتسعت الحركة على عددهم فقد بلغت في فترة قصيرة ارقاماً خيالية .

طلبت إليّ القيادة العسكرية ان اذهب لمقابلة الرئيس عبد الناصر لأخذ رأيه وموافقته والاستيضاح منه فيما اذا كان الظرف الدولي مناسباً للقيام بانقلاب .

جئت بيروت وحاولت ، فكاد يقبض علي في المطار ، فعدت إلى سورية وعاودت الكرة مرة ثانية بعد أيام ووصلت القاهرة في اول يوم من عيد رمضان سنة ١٩٦٢ وقابلت الرئيس في رابع يوم منه .

ليس هنا مجال ذكر التفاصيل وربما عدت اليها لأني اجد ضرورة جلاء كثير من الأمور .

كانت المرة الأولى التي اقابل فيها الرئيس عبد الناصر . كان تأثيره علي كبيراً . وعدت إلى سورية واثقاً به ، فنقلت موافقته ولمت الذين كانت لديهم شكوك حوله .

كان مقرراً ان تقوم الحركة في ٢٢ شباط ، ولكن القوى لم تكن كافية فتأجلت وأخذت الأمور على الصعيدين الشعبي والمدني تسير سيراً حثيثاً من حسن إلى أحسن .

في تلك الفترة عقد البعثيون القطريون اجتماعاً وانتخبوا قيادة وردتني اسماؤها فوجدت بينها اسم صلاح جديد فلم اصدق في البداية . واستوضحت من رفاقه المسرحين فأنكروا الخبر او ان تكون لهم صله بذلك . اكدوا لي ان الضرورات تقضي على ان يكونوا على صلة بكل الحركات، ولكن الصلة لا تعني الالتزام .

صدقت لأني اثق باصدقائي : ذلك غبائي العاطفي الذي يتغلب على المحاكمة ويعميني عن كثير من الواقع . طلبت اللجنة العسكرية

التي اصبحت غالبيتها من المسرحين إلى العضوين الباقيين منها قي الجيش الخروج منها خوفاً عليهما ، ودخلها اثنان جديدان احدهما صلاح جديد .

اعلنت القيادة العسكرية لحكم الانفصال حل المجلس النيابي . وكانت استعداداتنا كاملة لم نضع ثانية من الوقت ورأيناها فرصة جاءتنا كي تسهل مهمتنا . فقررنا ان نقوم بالانقلاب صبيحة ٢ نيسان ١٩٦٢ ، وأن تبدأ الحركة في حمص فتنضم اليها حلب واللاذقية وتؤيد الجبهة وتزحف قطعات السويداء باتجاه دمشق، وان تقوم عمليات اشغال فيها تزرع الفوضى في الحكم فيضطر إلى التسليم .

كان رأي العقيد علوان ان الامور ستنتهي الى المفاوضة وقرر آخرون ن قوتنا اكبر من ان تقبل بحل وسط .

لم تكن المفاوضات سهلة بين الضباط الوحدويين والبعثيين ، أصرّ الأولون على ان تعلن عودة الوحدة مع اعلان الانقلاب وذهب البعثيون ان ذلك غير ممكن عملياً فلا بد قبل اعلان الوحدة من تصفية الجيش وايهام كثير من العناصر ان الحركة هي ضد العقيد النحلاوي فقط حتى تؤيد القطعات التي يقودها ضباط انفصاليون ممن لا يوالونه . ذهبوا الى اكثر من ذلك ، الى انه لا بد من مناقشة عناصر كثيرة عسكرية ومدنية الحساب عن الانفصال وان لا ضرورة لتحمل الرئيس مسؤولية ذلك. فقد تؤدي هذه الاشياء الى احقاد من الافضل ان يتجنبها .

قلت ذلك للرئيس في مقابلتي له فأجاب : ان رئيس بلد يجب ان يتحمل مسؤولياته كاملة .

كان يرى البعثيون الى ان الوحدة كما كانت غير صالحة للحياة ولا بد من اعادة النظر في بنيتها الجديدة وتحديد الصلة بين الاقليمين بشكل يعطي الاقليم السوري بعض المرونة نظراً لوضعه الجغرافي والشعبي . كنا جميعاً متفقين على ذلك. لما حدثت الرئيس بهذا الأمر قال: يجب الا نهمل الدرس الذي تعلمناه من الانفصال ، هنالك أمور كثيرة يجب اعادة النظر فيها .

كان يرى الوحدويون ان يعلن الانقلاب الغاء ٢٨ أيلول وكأنه لم يكن ، فتعود الاوضاع الشرعية وتدرس حينئذ الاخطار وما هو الشكل الامثل للوحدة . وكان يرى البعثيون ان ٢٨ أيلول واقع لا يمكن الغاؤه ما دام قد حصل، وعدم الاعتراف بشرعيته شيء وأخذه بعين الاعتبار عملياً شيء آخر .

وأهم من كل هذا قضية الضباط المسرحين اي قائمة الثلاثة والستين ضابطاً ومنهم العقيد جاسم علوان . كان يرى الوحدويون ان عودتهم يجب ان يترك للرئيس الذي يرى فيها رأيه حسب مصلحة الوحدة، وألح البعثيون على ضرورة اعلان عودتهم مع اعلان الانقلاب حتى يتسلموا قطعات عسكرية لو حدثت ردة سريعة . كانت هذه النقطة اهم واخطر ما في المفاوضات. ووصلنا الى اتفاق يقضي باعادتهم مباشرة غير ان الاخذ والرد فيها ترك حساسية وشكوكاً كثيرة بين الطرفين وبات كلاهما يحذر الاخر ويسيء به الظن .

حل العقيد النحلاوي المجلس النيابي وأصدرت قيادة الجيش بياناً اعتبرته تتمة بيانات ٢٨ ايلول . لم يحمل الرقم (١) وفيه تلميح الى عودة الوحدة . وقد علمت في ١ نيسان ان الرئيس اطلع ووافق عليه قبل اذاعته ولكن بعد فوات الاوان .

اخفينا العقيد علوان منذ ٢٨ اذار وانتهينا من كل شيء يوم ٣٠ منه وسميت قيادات المناطق وتقرر بدء الحركة في حمص على ان يقودها العقيد علوان ويساعده المقدم محمد عمران .

عندما امتطى السيارة العقيد علوان لم يرافقه المقدم عمران قلت له : لم لا تذهب الان ؟ قال : ألحق به غداً . أجبت : « أكلناها ! »

كنت أخاف كثيراً طيب قلب العقيد علوان وأخشى عليه التورط في الخطأ في الساعات الحرجة وكان وجود المقدم عمران الى جانبه في تلك الساعات ضرورة لازمة . قال لي : لا استطيع السفر الان فلدي اتصالات هامة لا تكتمل الحركة بدونها .

سكت وتشاءمت .

غادرت السيارة دمشق في الساعة العاشرة مساء وعادت في الثانية الا ربعاً. ودخل علي الصديق الذي أقلّه بها يرقص فرحاً. قال: « انتصرنا ... سيطرنا على حمص وأعلن الانقلاب ... »

قلت: « ماذا ؟ »

قال: « خلص، انتصرنا ... »

وتصبب العرق البارد على جبيني وسيطر عليّ الذهول. الذي أعرفه ان تأخير الانقلابات جائز اما تقديم موعدها فلا. انه الفشل مائة بالمائة. قد يكون الانقلاب الوحيد الذي تقدم موعده ونجح هو انقلاب الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٥٢.

ذهبت الى بيت الرائد المسرح (آنئذ) عبد الكريم الجندي فأيقظته وأنبأته بالخبر. لم يصدق ثم دخن لفيفة وأخذ يفكّر قليلا ويكتب أرقاماً على ورقة ثم قال: « ذبحونا ! » قلت له: « وما العمل الان ؟ »

قال: «اذهب الى البيت. سأمر برفاقي حتى نرى ما يجب عمله.» وبعد قليل جاء هو والمقدم محمد عمران الذي كان يعاني ازمة كبيرة ولكنه يسيطر عليها ببرود أعصاب عجيب. سألني قائلا: كيف حصل ذلك ؟

قلت: نصحتك بالسفر معه فلم تفعل، يبدو انه انتهز فرصة غياب قائد اللواء الخامس فسيطر عليه.

قال: عجيب ! ان شخصا لا يقدم ولا يؤخر.

قال له عبد الكريم الجندي: ذبحتنا أنت. قلنا لك ما لنا وله ففرضته علينا.

أجاب: الامر خرج عن طور التردد. يجب ان نبادر. أصبح القتال مفروضاً علينا. وطلبا الي ان ابلغ الضباط الوحدويين تسبيق الموعد والقيام بمظاهرات شعبية في دمشق بعد أخذ رأي قيادتها العسكرية واعداد سيارات للضباط الذين يريدون ان يلتحقوا بالأمكنة المقررة لهم.

ذهبت في الساعة الثالثة صباحاً الى بيت النقيب عمر مصري فأيقظته وأنبأته. قال: « فشلنا ! » وارتدى ثيابه ثم ذهب يبلغ رفاقه.

أعددت ما كلفت به وانطلق كل الى هدفه من طرق غير الطرق العادية. فقد وردني ان القيادة باتت على علم. وحوالي التاسعة كان كل شيء

قد انتهى وأخذت ترد أنباء الفوضى التي ضربت أطنابها في صفوفنا . وقد علمت ان رفاق الاستاذ اكرم الحوراني لعبوا دوراً خطيراً وانهم غادروا دمشق قبل الضباط فاستغربت . وظل ذلك يشغلني حتى روى لي بعد سنوات العقيد عبد الكريم الجندي انه عندما خرج من عندي مع المقدم محمد عمران ذهبا الى بيت الرائد المسرح مملوح شاغوري (مسرح في فترة الوحدة) فأبلغاه ان رفاقه قاموا بانقلاب في حمص وطلبا اليه المساعدة فلم يضع الوقت وذهب بعض رفاقه الى حمص فأجروا اتصالات مع العميد الاعسر زرعت الفوضى في الصفوف وجعلت النجاح مستحيلا.

انضمت حلب منذ ساعات الانقلاب الاولى وسيطر على الموقف فيها الرائد البعثي حمد عبيد ، وكذلك دير الزور بقيادة العقيد لؤي الاتاسي وجرت الاتصالات مع اللاذقية والجبهة فأبدينا الاستعداد ولكن الموقف كان ضعيفاً في دمشق وأخذ يزداد ضعفاً طيلة يوم ١ نيسان على قدر ازدياد ضعفه في حمص .

قامت في حمص وفي حلب مظاهرات شعبية لم تشاهد البلدتان مثلها ، قادها الوحدويون الاشتراكيون .

اتصلت بالقيادة في دمشق . طلبت منا التريث . جاءني النقيب عمر المصري في الساعة الحادية عشرة يائساً. علمت منه انه ذهب للسويدا من اجل ان تتحرك القطعات فما فعلت ، وانه احتل المطار مرتين واضطر الى اعادة الجنود لأمكنتهم (كان يقود سرية حرس المطار الحربي) . سألته : « لم لم تتحرك السويدا ؟ » أجاب : «انهم ينتظرون ! » كان الرائد صلاح جديد مكلفاً بعمليات السويدا عن البعثيين .

اتصل آمر سرية الاركان بالعميد المسرح حكمة الداية وقال له : « انه على استعداد لاحتلالها . » فرفض رفضاً قاطعاً وطرده من بيته .

كانت السيطرة على الجبهة سهلة. جاءني رسول يقول لي: كل شيء فيها بحكم المنتهي وينتظرون أمراً .

كانت القطعات حول دمشق في حالة توتر تنتظر الزحف من حمص، بعضها ينوي المقاومة، وبعضها يرفض ان يشهر الجيش السوري السلاح

بعضه في وجه بعض .

انقلب الوضع في حمص ضدنا واضطر العقيد علوان على مغادرتها الى حلب. وهناك أفلت زمام الامر من يده وبرزت الخلافات بين البعثيين والوحدويين فما تدع مجالا لاتخاذ قرار ، والاذاعة فيها تتخبط : تارة تعلن عودة المتحدة وأخرى تطلب المساعدة من الرئيس عبد الناصر ثم تسكت ثم موسيقى عسكرية .. ثم زحف اللواء الخامس من حمص الى حلب ليقضي على الحركة. واضطر العقيد علوان على تسليم القيادة الى العقيد لؤي الاتاسي والاختفاء كما اختفى الضباط والبعثيون المسرحون

وأعلن عن مؤتمر عسكري يعقد في حمص اتخذت فيه مقررات اهمها دراسة موضوع الوحدة ، دراسة موضوع الضباط المسرحين ، اخراج العقيد النحلاوي ورفاقه من البلاد .

كان المؤتمر العسكري ديمقراطياً شبيهاً بالندوات النيابية على فوضى أشد، ضاع فيه الانضباط واختلطت الامور وفقدت فيه أهم القيم العسكرية. وتبين ان النتيجة الوحيدة له كانت اخراج العقيد النحلاوي ورفاقه. فقد أخذ عليه كبار الضباط التسلط على الجيش والسياسة وتبين ان الأهواء الشخصية كان لها المقام الاول وان قضية الوحدة لم تكن غير الهية .

اختبأ العقيد جاسم علوان في حي الكلاسة في حلب وتبعثر المسرحون وأخذ الحكم يلاحق الذين اشتركوا في محاولة ١ نيسان وأخذت السجون تمتلئ .

جاءتني رسالة من العقيد علوان يطلب مساعدته للفرار فأعددنا للأمر عدته وذهبنا الى حلب في ٩ نيسان فأخرجناه من مخبئه واوصلناه الى حمص وانقطعت بعد ذلك أخباره عني حتى صباح ٩ آذار ١٩٦٣ .

أخذت المظاهرات تترى وأخذ يتضخم تنظيم الوحدويين الاشتراكيين. وجدت ان موقف العسكريين المسرحين ابان وقبل محاولة الانقلاب مختلف بالنسبة الى الحركة. بعض يريد ان تنقلب الى بعث المستقبل الذي ينشأ بعد نجاح الانقلاب، وبعض اعتمد على حركة القطريين (البعثيين المنشقين على القيادة القومية) . الطرفان كانا مجمعين على ان تنظيمات

الحزب القديمة لا يركن اليها ، يرون انها بالية ، غير صالحة للحياة .

فاتحني الميالون للوحدويين الاشتراكيين برأيهم وطلبوا مني العمل على ذلك .

كان جوابي ان الحركة ربما انقلبت الى اتحاد اشتراكي واني شخصياً عندما تعود الوحدة سأنفصل نهائياً عن السياسة وأعود للتعليم في القرية لأني مؤمن ان مهمتي الانسانية وايماني بها لا يسمح لي بدخول معترك انا بعيد عنه بطبعي وان المرحلة الحالية موقتة عارضة في حياتي ، اكرهني عليها اعتقادي ان الواجب يحتم خوض معركة .

كان الجواب : ان عودة الوحدة ليس على السهولة التي أقدر اما دوامها فأصعب ، ما دامت القوى — وخاصة الخارجية — موجودة لم تضعف ولم تقو مقومات حياة الوحدة عما قبل ولا بد من جهاز شعبي منظم قوي يدعمها ولا بد ان يرى الرئيس عبد الناصر ان الاتحاد الاشتراكي بحاجة كيما يستقيم تنظيمه ويصبح ثورياً حقيقياً الى هذا الجهاز فيغدو المزيج حركة عربية واحدة أفضل ان تسمى « البعث العربي » ، وحينئذ لا تستطيع القيادة القومية ان تتجاهل فتكون فروعها في الوطن ثمينة لحفز ودوام مسيرة الثورة .

قد يبدو ذلك خيال مهووسين. ولقد قنعت به كل القناعة وما زلت على أهبة الايمان بمثل هذه الخيالات . ان السياسي الذي لا ينطلق واقعه من خيال كبير يصبح انتهازياً . بل اذهب الى ان الفشل في تحقيق فكرة كبيرة خير من النجاح في فكرة صغيرة .

منذ بداية أيار أخذنا نعد لمحاولة ثانية في جو صعب مستحيل . كل من البعثيين والوحدويين يشك بالاخر ويناور عليه . أخذت مع بعض المدنيين على عاتقي اعادة الحياة الى مجاريها ولكن دون جدوى .

في تلك الفترة ظهر على المسرح اسم الاستاذ يوسف مزاحم وأخذ يعاملنا على انه نائب الرئيس الشرعي ويلقي الاوامر ، يرفض المناقشة ويطلب منا التنفيذ فلم نتحمس لهذا الأسلوب واتسعت الشقة بين الاطراف التي تحاول الانقلاب .

عاد المقدم محمد عمران في اوائل ايار واعددنا له اكثر من مخبأ .

اتبع البعثيون خطة ذكية فتسربوا الى كل التنظيمات العسكرية دون استثناء . كانت تصلني بعض قوائم بأسماء الضباط وتنظيماتهم فلم تمر علي قائمة الا فيها عدة بعثيين ووصلتني قوائم انفصالية فوجدت فيها اسماء بعثية . كانوا بهذه الطريقة مطلعين على كل شيء يوجهون التنظيمات لمصلحتهم بحذر ودقة .

كان العمل الشعبي يسير حثيثاً ويتضخم . والحزب غائب عن سورية لم يقر اعادة التنظيم فيها الا في حزيران ١٩٦٢ ولم يبدأه الا بعد مدة . كانت اكثر فرصة مناسبة له لقيادة الجمهور .

يوم ٢٨ ايلول لم يكن هنالك اي تنظيم شعبي ، كان مجرد نزول الحزب للساحة يعني قيادة سورية . ولمع اسم الاستاذ ميشيل عفلق خاصة بعد توقيع الاستاذي البيطار و الحوراني وثيقة الانفصال . فقد اصبح وحده قائد الحزب .

اطلعت في تلك الفترة على تعميم الى المنظمات الحزبية صدر في كانون الاول ١٩٦١ بعنوان « الاحداث الاخيرة في ج . ع . م . او خطتنا بعد الانفصال » جاء فيه : « ان بعض الفئات حاولت ان تثير ضجة رعناء حول حزبنا من اجل جره الى مستنقع الانتهازية ودفعه الى العمل ضمن مخطط أجوف بجعله يدور حول نفسه ، لا يعرف من اين جاءت الطعنة ومن اين ستأتيه الطعنة التالية . ان هذه الفئات مارست ضغطاً استخدمت فيه كل الاساليب من اجل وضع الحزب على هامش الاحداث وضمن جوقة المتفرجين الذين لا يملكون الا الهتاف والتصفيق. ان كثيراً من الصحف والاقلام التي كانت تهاجم حزبنا وتسفه عقيدته وتسخر من تاريخه ونضاله ، تحولت فجأة فأظهرت حرصها وغيرتها على عقيدة الحزب ونضاله، التي ستشده ما لم يبادر الحزب للالتحاق بزمرة المتفرجين والمطبلين. ولكن حزبنا لم ينخدع بهؤلاء الحريصين « جداً » على مصلحة الحزب وعقيدته واستطاع ان يرتفع الى مستوى رسالته والى مستوى مسؤوليته التاريخية . »

الحقيقة ان اكثر الناس الحاحاً على عودة الحزب للساحة هم الحزبيون انفسهم حتى لقد ضاقوا ذرعاً بالقيادة .

وجاء في نهاية التعميم « ان الحكم الدكتاتوري المنحرف الذي اقامه الرئيس عبد الناصر يرى على الدوام في حزبكم خنجر الحقيقة التي تفجر اكاذيبهم وتفضح زيفهم .. »

وصدر في ٢١ شباط ١٩٦٢ بيان جاء فيه : « ومن أخطائه (اي الحزب) آنذاك ارجاؤه البحث في محتوى الوحدة وصيغتها ككيان قومي جديد الى ما بعد اعلانها ، وبالتالي موافقته على حل نفسه والغاء دوره القيادي في حماية الوحدة وانمائها مما أفسح المجال امام الحكم الفردي اللا اشتراكي لأفراغ الوحدة من مضمونها الديمقراطي الاشتراكي وبنائها على اساس التسلط الفردي والبوليسي ، المستند الى تفتيت القوى الشعبية التقدمية ، كما أفسح المجال بفصله بين الوحدة والديمقراطية بين مصلحة الجماهير ووجوده ، أمام الحكم الفردي والرجعية وأعداء الشعب للتلاعب بمقدرات ومصير الوحدة وجماهيرها التي تركت دون قيادة وتوجيه ... وحدثت الانتكاسة ... وطبقت الوحدة بعناد واستهتار عجيبين واستغلت وطنية الشعب وطليعته الثورية أبشع استغلال وصبر الشعب طويلا على الظلم والانحراف لكي لا يتأثر نضال اخوانه في معارك التحرر ولكي لا يطعن الأمل في استعادة فلسطين . وحال نظام الحكم الناصري وضعف مستوى الوعي العربي العام في البلاد العربية وتفتيت القوى الثورية وغياب الحزب دون امكانية تصحيح الاوضاع ضمن اطار الوحدة . »

ويضيف البيان . « بل ان هذا النظام بدافع المحافظة على نفسه وتوطيد حكمه ، كان يتملق النزعة الاقليمية في مصر محاولا ان يعطي الوحدة معنى الامتداد المصري . »

ولكنه لا ينسى ان يقول: « الا ان أخطاء نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة مهما بلغت من الخطورة فانها لا تبرر الانفصال ، اذ يبقى ان فشل تجربة الوحدة هو نتيجة أخطاء ، وقيام الانفصال نتيجة

تدبير وتصميم . »

اظن الحزب فقد الفرصة الذهبية التي كانت تمكنه من السيطرة على الحكم بعد ٨ آذار .

لم يكن العسكريون البعثيون على اتصال بقيادة الحزب القومية وما اظن ان ذلك كان في حسابهم، ولكن الضباط الوحدويين كانوا يقرأون هذه البيانات ويفسرون سلوك البعثيين بها ويبنون علاقتهم معهم على اساسها . لا أشك انهم كانوا يستوحون اكثر أفكارهم منها . بل اذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان كلا من الطرفين كان يفكر بهذه الطريقة نفسها : مشروع الوحدة الاتحادية الذي أعلنه الحزب في ١٨ أيار ١٩٦٢ لم أجد فيه جديداً فقد توصلنا في المناقشات التي دارت قبل ١ نيسان حول كيفية الوحدة المقبلة الى نفس النتائج تقريباً والى نفس التسمية.

كانت محاولات التقريب تصطدم بالشك المتزايد. ولا اريد ان القي المسؤولية على الحزب فقد فعلت أجهزة المتحدة فعلها أيضاً ، فهي لم تكن تثق بأي بعثي مهما كان الجناح الذي يمت اليه ومهما كان موقفه آنئذ .

كان الجو في سورية مشحوناً بالقلق ، ينتظر كل انسان ان يسمع البلاغ رقم واحد في كل صباح ، غير ان حساب القوى لم يكن مشجعاً ومع ذلك استمرت الاتصالات وازدادت المظاهرات وكثرت البيانات السرية. كان علينا الا نترك المجال للحكم كي يتنفس او يستريح. استطعنا زرع الفوضى في صفوفه . لم يعد استمراره غير مكابرة .

كان لسجن الرئيس القدسي ثم اعادته الى القصر بنفس الرتبة والراتب أثراً كبيراً على بنية الانفصال كلها زعزع الثقة به وفقدت أوساط التجار ثقتها فلم تعد الاموال التي هربت من سورية اليها وانما ازداد التهريب وعمد المتمولون بعد ان رأوا تأرجح الحكم الى استغلال نفوذهم والتفكير بمستقبل مضمون خارج الحدود .

ورأى العمال ان ما كسبوه وما أملوا كسبه في فترة الوحدة قد ذهب الى لا رجعة فامتنعوا على عهد الانفصال وقاوموه بضراوة .

عمد المجلس النيابي الى اعادة النظر بقانون الاصلاح الزراعي

فثارت ثائرة الفلاحين . لم تتعلم البورجوازية السورية شيئاً منذ ١٩٤٥ حتى ١٩٦٢ ، ظلت مغمضة العينين عن التطور تظن ان القوانين يمكن ان تعود بها الى الوراء وما عملت الا انها حفزت العداء ضدها الى خطوات أقسى تحققت فيما بعد . أخذت تلعب بالنار منذ الساعة التي اقتربت فيها من السلطة .

اظن ان العامل الاول في عدم نجاح الوحدة هو السنوات السبع العجاف التي عاشتها سورية ، فقد تعرضت الى موجة من الجفاف لم تعهدها منذ قرون وتحمل الحكم مسؤولية نتائج عوارض الطبيعة . لقد انقذت الثروة السورية الكامنة في ارضها ومناخها الاقتصاد السوري من كل هزات السياسة ومكنته من الاستمرار والتطور الى افضل فاحتفظت سورية بنوع من التوازن لم يتأثر بالأحداث. اما في فترة الوحدة فقد اختل وحملت الاصلاحات الاشتراكية مسؤولية هذا الخلل فكان لزاماً على البورجوازية ان تدعم حكمها بتضحيات اقتصادية فلم تفعل وقضت على مبرر وجوده الوحيد فغدا حكما عسكرياً حقد عليه العمال والفلاحون وتنكر له « اصحاب الفعاليات الاقتصادية » فعلا وايدوه قولا ووجد عسكريوه أنفسهم في عزلة مطلقة سلبته مقومات حياته .

سمح حكم الانفصال بحرية الصحافة فيما بعد ولكنه لم يستطع ان يسمح بالحريات الاخرى. والصحافة اداة خطرة على اي حكم اذا لم تأت معبرة عن تلك الحريات ، بدأ حكم الانفصال بها وكان عليه ان يبدأ بغيرها ثم ينتهي اليها . يضاف الى ذلك التناقض بين الحكم المدني الذي كانت تظهر عليه أعراض مرض الواجهة ، يعلن عن تمسكه بالديمقراطية ولا ديمقراطية. فالعسكريون كانوا يتصرفون على هواهم وانتقل التناقض الى صفوف هؤلاء بين مؤيد للقيادة وحاقد عليها متعصب للعقيد النحلاوي وما كان هؤلاء واولئك مؤمنين بجدوى موقفهم فما كان تمسكهم الا دفاعا عن النفس وخوفاً على مصيرهم .

العقيد عبد الكريم النحلاوي ذكي جداً، مناور من الطراز الاول، يدل على ذلك موقفه من المشير عبد الحكيم عامر. فقد كسب ثقته الى حد

جعله يشك بكل الناس ما عداه .

قبل ٢٨ أيلول بأكثر من شهر رفع نائب الرئيس عبد الحميد السراج الى المشير عامر تقريراً يخبره فيه ان العقيد النحلاوي يتآمر على الوحدة ويعد انقلاباً ، كما اتصل بعض الضباط البعثيين في القاهرة بقيادتهم يحذرونها من انقلاب .

لم يكن من المشير عامر الا ان استدعى العقيد النحلاوي وأطلعه على التقرير ساخراً منه .

بعد ٢٨ أيلول اعتمد العقيد النحلاوي على الاخوان المسلمين وأطلق لهم حرية العمل فخافت الفئات والطوائف الأخرى ووقفت منه موقفاً حذراً .

رغم فشل محاولة نيسان وسجن الكثيرين وصرفهم من الخدمة اخذنا نكتسب عناصر جديدة في الجيش ببطء ونعدّ العدة لانقلاب آخر ولكن بحذر شديد . واستشرى الخلاف بين البعثيين والوحدويين .

في اواخر نيسان وضعتُ تحت المراقبة بشكل ظاهر . فغباء المخابرات السورية العضال يجعل من المراقبة ملاحقة : ادخل إلى المقهى فيجلس قريباً مني شاب مفتول العضل والشارب ويتلهى بنرجيلة او بالورق ويرمقني شذراً بين حين وآخر ، ينهض إلى صاحب المقهى فيسأله عن الأوقات التي آتي بها وينبهه إلى الا يخبرني عن سؤاله لانه من المخابرات ويحاول دفع ثمن مشروبه فيرفض «المعلم» . اركب الباص فيجلس خلفي . استأجر سيارة تكسي ، فيلحق بي بثانية وعندما اصل إلى هدفي يختلف مع السائق على الأجر فيعلن له انه من المخابرات ، يحق له تسعيرة خاصة . اصل إلى البيت ليلا فيبقى في الشارع يتمختر وينظر إلى النوافذ على انه يغازل (بنات الحارة) حتى اذا سأله احد الجيران عما يفعل قال له همساً انه من المخابرات يقوم بمهمة سرية جداً وحذّره من ان يبوح بالسر لأحد وخاصة الدكتور . وصلني خبر من سجن المزة ينبهني إلى ضرورة الاختفاء فقد اخذت اسئلة التحقيق تتناول اسمي فقررت السفر إلى لبنان ووجدت انه من الصعب الحصول على وثيقة، وحبكت النكتة

واقتربت من احد مراقبيّ (كانا اثنين يتناوبان حراستي) حييته فعبس ولم يتولّ. قلت له : اسمع انا بحاجة لوثيقة سفر إلى لبنان ولم اجد احداً اعتمده بالحصول عليها افضل منك، وانت اهل للثقة على ما ارى .

في اليوم الثاني جاءتني الوثيقة وفي الثالث دخلت المقهى وخرجت بعد قليل من الباب الثاني وسافرت إلى بيروت (علمت فيما بعد ان المخابرات تعرفت بعد الحادثة على الباب الثاني) .

اتصل بي وانا في بيروت ان المخابرات زارت بيتي تسأل عني فعدت إلى دمشق واتصلت بهم وحدّد لي المسؤول موعداً فذهبت اليه وطرح علي اسئلة فهمت منها اني متهم بتهريب العقيد علوان . قلت : لو كان ذلك حقاً لما اتيتك من بيروت .

اعتذر مني وخرجت وانا متأكد ان محاولة التضليل لا تستمر اكثر من ايام ولكنا كنا في عجلة من امرنا ، كل يوم له قيمة .

ذكرت الحادثة السابقة كي اعطي فكرة للقارىء عن الدرجة التي وصل اليها خلل نظام حكم الانفصال . كنا في احيان كثيرة نعتمد على اجهزته . ما عاد هنالك من يؤمن باستمراره .

في ٨ حزيران قبض علي قبل ان اختفي بساعة فقد اخطأت التقدير . ذهبت إلى البيت كي اتناول الغداء وكنت جائعاً . لو ذهبت إلى مخبأي لما عرفت سجن المزة .

على جدران الزنزانة الثالثة وجدت تاريخ سورية ، اكثر الاسماء اعرفها او اسمع بها : قوميون اجتماعيون ، شيوعيون ، بعثيون ...

كنا نسمع ألا تعذيب في السجن وان الناس فيه في خير عميم وان حكم الانفصال يلجأ في التحقيق إلى الوسائل العلمية، وانه لا يريد استخدام الوسائل التي شوهت عهد الوحدة وانهته . وجدت ان الحقيقة الوحيدة في تاريخ سورية الحديث هي سجن المزة العسكري والسوط ، كل ما عداه وهم ، كان دائماً يتطور إلى اقسى حتى هذه الساعة .

عندما اذكر القسم الذي اقسمناه في ان نحيله إلى فندق سياحي أضحك بمرارة .

كانت اصوات المعذبين تملأ الليل وتسكت عند الفجر كأنها ارواح جن يطفئها النور . سارت حياتنا في نظام عجيب، ننام عند الفجر ، نقضي غالب ايامنا نياماً ونستيقظ إذا جاء المساء .

في شهر آب وصل التعذيب إلى درجة لا يتصورها العقل وافتنّ فيه المعذّبون حتّى ابدعوا . كانوا يلفون السجناء في اغطية من الصوف لا يبين منهم شيء، يتركون لهم فجوة للتنفس فقط ويتركونهم على ذلك اياماً في جو قائظ محرق دون حركة او كلام ، والحارس يضرب بسوطه من ينبس ببنت شفة . وكثر عدد القادمين ، كنا نعرف عددهم من اكياس الخبز ، وقدرنا انهم زادوا على الألف في منتصف ايلول ، الشهر الذي وضعت فيه في غرفة مع سجين آخر وسمح لي ان اتكلم مع السجناء .

اخذوا يضعون السجناء في الزنزانات كيفما اتفق . في دوش الحمام كان يقطن اثنان احياناً . وزاد عدد موظفي السجن، إذ بات اطاره غير كاف لأخذ الاعترافات بالكي الكهربائي وبقية الوسائل .

كانت هنالك محاولة في ٢٩ تموز فشلت ايضاً . اتصل بي ان القائمين عليها اعتبروا ان بعض الاشخاص خطرين عليهم فأخبروا عنهم بواسطة اصدقاء لهم في الاجهزة السرية حتّى يبتعدوا قليلا عن الطريق، وعندما تنجح الحركة يخرجون من السجن ابطالا ومانشيتات على الصفحة الأولى . ويبدو اني كنت من هؤلاء . لم يثبت لدي ذلك مائة بالمائة .

عندما جاء بي المحقق وجدته واقفاً على تفاصيل نسيتها او لم اتنبه لها ونحن نقوم بعملية تهريب العقيد علوان .

لم تنقطع عنا الاخبار ونحن في السجن رغم كل المراقبة . كان التوتر يزداد يوماً فيوماً .

خرجت من السجن في ٥ تشرين الثاني فوجدت الوضع الشعبي

يبشر بأن الحكم قد انتهى رغم مظاهر القوة . من الناحية العسكرية كان الوضع سيئاً، فقد كانت القوات المحيطة بدمشق في يد الحكم لا سبيل إلى السيطرة عليها أو تجميدها اذا قمنا بمحاولة ، اما في بقية القطعات فقد تحسن حالنا وكان لا بد من تأليف الوحدويين ولا سبيل .

وظهرت قوة ثالثة هي قوة العقيد زياد الحريري .

قلت ان المؤتمر القومي الخامس اقر في حزيران ١٩٦٢ اعادة تنظيم الحزب في سورية وظهرت جريدته في ٢١ تموز ١٩٦٢ ، و صلتنا اعدادها إلى السجن ووصل مبيعها إلى ارقام لم تعهدها من قبل وحافظت على الخط الذي اشرت اليه ولكن التعابير التي نوهت بها عن الرئيس عبد الناصر كانت اقل حدة مما في السابق . هذا الخط لم يكن يرضي الوحدويين تماماً ولكنهم اخذوا ينظرون اليها بعين العطف وطربوا للحملات التي شنتها على الانفصال .

وقع الحكم في اخطاء وتناقضات دعائية كبيرة. فقد أخذته حميا التوتر العصبي وباتت حملاته تهشيماً وشتائم وكانت اكبر خطيئة له الحملة على بن بلاّ الذي لقبته « بالناصري الأمريكي » بعد ان فشلت في خطب ودّه ، وفي الساعات التي كانت تعتبره سورية بطلا قومياً وتعيش نشوة انتصار الثورة الجزائرية، فصدم شعور الشعب في اغلى ما لديه ووضعه جهله تقنية الاعلام في موضع المتهم بالخيانة .

في ٢٢ ايلول ١٩٦٢ ظهر في البعث مقال انتهت به آخر علاقة للاستاذ اكرم الحوراني بالحزب، اعني حين نشر بيان القيادة القطرية الصادر في ١٤ آب ١٩٦٢ فزاد ذلك التقارب مع الوحدويين .

عقد في شهر تموز اجتماع في حمص استأنف فيه الحزب نشاطه وتنظيمه واعتقد انه تأخر كثيراً . وتكونت له قيادة قطرية اخذت تتصل بالعسكريين ولكنهم ظلوا بعيدين وكأنهم من حزب آخر .

في شهر آب سلم نفسه للسلطات المقدم محمد عمران واصبح قائد اللجنة العسكرية الرائد صلاح جديد .

وجدت الوحدويين الاشتراكيين قد تطوروا تطوراً غريباً ،

اصبحوا قوة ولكنهم تبدلوا كثيراً . قررنا في بداية العمل ألا تكون لنا فروع في خارج سورية وان نصبّ جهدنا في دمشق مهما كانت المغريات واذا بنا اصبحت لنا منظمات في اكثر من قطر عربي ، جمعنا كل المنشقين على البعث ، الناقمين عليه . كانت خطيئة مميتة . موقف القيادة مني كان غريباً ، كله شكّ . لاحظت انهم في احيان كثيرة يعقدون جلستين بدل واحدة ، احداها لدراسة وضعي لا احضرها والأخرى للتحقيق معي عن علاقاتي مع العسكريين . كانت شكوكهم كثيرة حول الرائدين صلاح جديد وعبد الكريم الجندي يتهمون الأول انه سوري قوميّ احياناً وانه قطري احياناً اخرى والاثنين بالانفصالية . كنت ادافع عنهما فلم اكن اشك بأن رواسب عقد حكم الوحدة تضلّهما عن هدف قومي .

لم تكن تلك حالة الشك الوحيدة . لقد استطاع حكم الانفصال بأجهزته واشاعاتها وما تثيره من رد فعل واشاعات مضادة ان يخلق الريب في نفوس الناس فما سلم معارض او مؤيد من لوثة في سمعته .

عانيت بعد خروجي من السجن حالة نفسية قاتلة ما زلت اجهد للخلاص منها فلا استطيع . احداث يومية صغيرة كانت ترهق ايماني بالبشر حتى لهانوا في عيني وراودني شعور اني اهوّم في فراغ اللاجدوى وآمنت ان المرحلة التاريخية التي نعيشها هي من عصور الانحطاط ما تجاوزناها بعد ، كل ما نسجه خيالنا لم يكن غير وهم خياليين .

ضاقت ذات يدي وقررت العودة إلى القرية فجاءني مبشر بأن تعويضي في جريدة الوحدة آذن بالدفع فأجلت الرحيل ما دام وجودي ضرورياً في دمشق. وجاء يوم بارد وليس في البيت وقود فاستعرت مدفأة غاز من جاري . في ذلك اليوم نشرت صحيفة اني اوزع المال مما « قبضت » ذات اليمين واليسار، فجاءني في اليومين التاليين وجوه من السياسيين منهم المحامي والطبيب والاستاذ ، واضرب عن ذكر الاسماء ، كلهم يشكو تعثر عمله وضيقه الذي سبّبه النضال ، يلمحون بأسلوب دبلوماسي رقيق إلى ضرورة الدعم الاقتصادي

لحركة الوحدة . كنت لا اصدق .

كانت تصطدم محاولات التقريب بسوء ظن كل من الفريقين بالآخر حتى غدا الدفاع عن فريق أمام الثاني موضع تساؤل. ووجدتني متهماً عند الوحدويين بالانفصالية وعند البعثيين بالناصرية وتعثرت المفاوضات بينهما حيناً غير ان ظروف الضباط البعثيين كانت شاقة دفعتهم إلى اللين . فقد كانوا ينوؤن تحت عبء المحاكمة التي تلت محاولة ١ نيسان . تخلى فيها الناس عنهم جميعاً . لم يتقدم من رفاقهم القدامى في الحزب من المحامين غير واحد. وقد حفظوا هذا الموقف لهم وقد يكون هو مصدر حقدهم على الاستاذ اكرم الحوراني ورفاقه وهو الذي اكد تخطيطهم القديم بانشاء الحزب من جديد .

كان يريد حكم الانفصال ان يعيد إلى الأذهان محاكمات القوميين الاجتماعيين التي رئسها الفريق البزري وان يربح الشعب إلى جانبه نهائياً، غير ان النتائج جاءت معكوسة حتى غدا المتهمون ابطالا وتصاعد جوها حتى غدت محط انظار الناس. وكانت ضربة المسرح الاخيرة هي مجيء العقيد لؤي الأتاسي لحضورها .

كان آنئذ ملحقاً عسكرياً في واشنطن واستدعته المحكمة وما كان ينتظر احد قدومه، فمن قائل انه رفض، ومن زاعم انه ذهب الى القاهرة لاجئاً سياسياً، واذا به يأتي ويقدم نفسه فزج به في السجن. وانتهت المحاكمة بأحكام مختلفة منها حكم اعدام بحق احد البعثيين ، احيلت اوراقه للقصر الجمهوري للتصديق فعاش البعثيون في توتر صعب .

كانوا معرضين للوقوع كل يوم بأخطاء ولمحاولة طائشة وفكروا جدياً بالاغتيالات .

لمع آنئذ اسم العميد الصوفي الذي عاد من دراسته في الاتحاد السوفيتي وتسلم قيادة اللواء الخامس في حمص وكلفت بالاتصال به ففعلت . كانت فرصة نادرة ضيعها بتردده .

لم يكن البعثيون في البداية يميلون إلى التعاون مع العقيد زياد الحريري، رغم ان اسمه اخذ يلمع كثيراً واستقطب عدداً كبيراً من

الضباط . كان موقفهم منه سلبياً يظنون انه شيشكلي جديد ، يخشون ذكاءه وقدرته على المناورة . ولكن تردد العميد الصوفي جعلهم يفكرون فيه جدياً ، على خشيتهم منه .

لم اكن اعرف العقيد الحريري من قبل . كنت اتحدث مع الضباط البعثيين كثيراً في امره . كانت الصورة التي يعطونها عنه متناقضة وحاولت ان اجتمع به كي ادرسه ولكن الرسول الذي ذهب اليه تقل له عني حديثاً مغلوطاً وعلمت فيما بعد انه استشار رفاقه فطلبوا اليه تبديل كلماتي بشكل يضعون فيه العقيد تحت التجربة . فنجا منها وهو يحمل عني فكرة سيئة ولكنهم ظلّوا يسيئون به الظنّ .

كنت اجد الوضع السياسي جاهزاً للانقلاب خلافاً لحسابات العسكريين. واخذت الحّ على ضرورة التعاون مع العقيد الحريري بعد ان يئسنا من إقدام العميد الصوفي . ذهبت إلى ان القطعات المحيطة بدمشق لم تعد في حالة نفسية تمكنها من الحركة وان العميد الصوفي سيضطر لتأييد حركة يقوم بها البعثيون ولن يستطيع معارضتها لان ضباطه سيضغطون عليه، فقد باتوا على اهبة تأييد اي انقلاب ضد الحكم القائم . كنت اذهب إلى أبعد من ذلك فأرى أن الانقلاب لن يكون نهائياً فلا بد بعده من حركات تصفية وانه لا بد بعد النجاح من الحذر، فان اثبت العقيد حريري انه اهل للتعاون استمرينا معه والا فانقلاب معه وآخر ضدّه. وتبنى العسكريون الفكرة وقاموا باتصال جدّي معه وتوصلوا إلى اتفاق مبدئي .

في ٩ كانون الأول ١٩٦٢ هبط فجأة العقيد النحلاوي مطار دمشق ورفاقه الذين اجبروا على مغادرة سورية بعد مؤتمر حمص العسكري . وتبلبل الوضع وظهر ضعف قيادة الجيش والحكم . ومنذ وصوله دب الحماس في صغار الضباط الانفصاليين وتحركوا للعمل . كان واضحاً ان اتصاله بهم لم ينقطع خلال غيابه عن سورية ويبدو انه كان مصمماً على الحكم هذه المرة واخذ يناور ببراعة ولكنه كان غريباً عن الجو. فقد تبدلت سورية أعواماً كثيرة في تلك الشهور

واكسبت التجربة الناس خبرة فما تنطلي على احد حيلة .

اراد ان يطمئن كل الاطراف. وبدأ بأن سيطر ضباطه على اللواء السبعين وعلى معسكرات قطنا واخذ يجري اتصالاته فلوّح لقيادة الجيش بالطاعة وبالتهديد ولوّح للوحدويين بوحدة مدروسة وللبعثيين بوعود غامضة .

جاءني شاب كان يزورني بين حين وآخر وحدثني طويلا عن العقيد النحلاوي وأضاف انه قادم للتوّ من عنده . سألته اذا كان هو الذي ارسله، أجاب بلا. ولكن الحديث تناولني وأبدى انه يعتمد في فهم مراميه على امثالي . قلت له لقد نجح العقيد النحلاوي في ٢٨ ايلول لغموض سلوكه وذكائه إبان الوحدة ولكن الظروف التي نعيشها لا تحتمل الا الوضوح والصراحة وما عليه إذا صحت نيته بالتعاون مع الآخرين الا ان يحدد علاقته معهم وموقفه من شروطهم .

قال : هل تعرف شروط البعثيين ؟

قلت : جيداً .

– هل تستطيع اقناعهم ؟

قلت : الذي اعرفه ان شروطهم هي اساسية في قناعاتهم .

ذهب ثم عاد إلي في المساء . قال لي : إن العقيد لا يعرف شروط البعثيين وهو يفضّل بحثها بعد ايام ولا بد من تأييدهم الآن .

لم يدع هذا التغابي مجالا للشك في النيات .

قلت : شروطهم معروفة : الضباط المسرحون ، الغاء المحاكمة ، الوعد بعدم تنفيذ الأحكام واعطاء الضمانات من اجل عودة الوحدة بشكل اتحادي . وأضفت اني افضل مقابلته .

اتصلت بالعسكريين فكان رأيهم ان استمر بالاتصال وعلمت منهم انه يتصل بهم ، هو ايضاً بوسائله .

كان الجواب انه لا يستطيع مقابلتي وانه سيدرس امر المسرّحين جدياً، وان ظروفه لا تمكنه من اعلان الرغبة عن إلغاء الأحكام لان

صغار الضباط يلحون على تنفيذها . اما عن الوحدة فلا بد من عودتها لانه وحدوي .

كانت المعلومات التي لدى العسكريين تؤكد ان لا قدرة للعقيد النحلاوي على السيطرة على الحكم. فقد وصلت الاوضاع إلى الحد الذي لا يستطيع معه احد لا هو ولا الوحدويون ولا البعثيون تحريك القطعات وأن كلا من الأطراف قادر على تجميدها فقط. والوحيد الذي يتمكن من التحرك هو العقيد زياد الحريري، ولكنه مكره على ترك الجبهة مما يعرض الحدود للخطر ويجعل قوات المتحدة عاجزة عن رد هجوم اسرائيلي محتمل .

قدرت آنئذ ان الشق الأول من الفرضية صحيح واما الثاني فلا، لأن اسرائيل لا تنجر امام الاحداث ولا تعرض كيانها لانتهاز فرصة لم تحسبها وتخطط لها من قبل. ولو صح ففعلت لنسي السوريون خلافاتهم، كما ان الظرف الدولي لم يكن ملائماً والرأي العام العالمي لم يكن معداً .

كان من الضروري اكثر من كل ذلك ان يتأكد العقيد النحلاوي من عجزه وان يجابه رفاقه واقعهم فيضطرون للتخلي عنه .

في ١١ كانون الأول ، ابلغ النحلاوي قيادة الجيش شروطه وامر الضباط بأن يتحركوا صوب دمشق ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يفعلوا . فقد وجدوا طواقم الآليات ناقصة وتهرب صف الضباط او رفضوا التنفيذ وقام يومئذ العقيد حريري بمناورة بارعة فحرك قطعات من الجبهة وصلت إلى سعسع وابرق لقيادة الجيش بدعمه لها وبنيته في القدوم إلى دمشق للدفاع عنها ، فتوسطت تلك لديه للعودة واتصل به البعثيون يثنونه عن عزمه بعد ان تبين عجز النحلاوي وابلغوه انهم يفضلون عدم الاحتكاك حالياً مما يدفع إلى مقاومة غير ضرورية. فتريث قليلا في سعسع ثم عاد إلى الجبهة بعد ان تأكد من رحيل النحلاوي ثانية ورفاقه عن سورية .

لقد انتهى حكم الانفصال بالواقع يوم ١٣ كانون الأول .

تبينت فيما بعد ان موقف صف الضباط لم يكن عفوياً وان الاتصالات بهم قامت على قدم وساق مستخدمة كل الوسائل حتّى المشايخ من الطائفتين السنية والعلوية .

لم اخف تخوفي من ذلك . اذكر اني قلت لبعض الضباط المسرحين : كنت افضل نجاح النحلاوي فقد بدأنا سيرة جديدة تقضي على الانضباط في الجيش وتزرع فيه الطائفية .

تنفس البعثيون والوحدويون الصعداء فقد ذللت كل المشقات الانفصالية ولم يبق الا ان يتفقوا بعضهم مع بعض .

أخذ التنظيم الحزبي للبعث يسير وئيداً وبدأت تجري بين المدنيين والعسكريين اتصالات متزايدة ولكن القيادة المدنية ظلت تجهل كل شيء وبدا لي ان العسكريين مصممون على استغلال كل القوى .

كانت سورية تعاني عزلة سياسية مطلقة عربية وعالمية ، حاولت ان تتقرب من الجزائر فجوبهت بالرفض ولم تتحمس لها الدول العربية الأخرى . فقد كانت موقنة ان الوضع فيها غير مستقر وما كانت على استعداد لأية مجازفة . وارادت بعض الدول الأجنبية ان تدعمها ولكنها كانت تتأرجح بين شرق وغرب ولم تستطع ان تضع استراتيجية سياسية رغم انه بدا بوضوح ان امريكا رحبت بوضع انفصالي ، كما استمر الاتحاد السوفياتي بنهجه السياسي الذي اختطه تجاهها رغم التبدلات السياسية .

وتحمل الحكم اقتصادياً نتائج السنوات العجاف فلم يحسّن الموسم الجيّد حالة الميزانية .

أراد الحكم ان يلعب لعبة توجيه الأنظار إلى الخارج حينما يضعف داخلياً فلم يجد امامه غير حكم قاسم وتعلّقوا بارث طويل من الكره . وكان الشعب لم ينس بعد فظائع الموصل فزادوا كره الشعب لهم ونقمة شعب العراق على قاسم لانه اخذ عليه اتصاله بالانفصاليين .

بعد سفر النحلاوي خال الحكم انه سينعم بالاستقرار واخذ يحاول تثبيت الوضع دون جدوى. وأخذت الاتصالات تثمر بين

الوحدويين والبعثيين والعقيد الحريري .

وجاء الانقلاب في العراق في ٨ شباط فكان اوجع ضربة أصيب بها الحكم في سورية وبعث التفاؤل في قلوب المؤتمرين به ونشطت الاجتماعات .

لم يبق على الحكم الا ان يهادن الوحدويين ويعتمد عليهم فاجرى بعض التبدلات في الأركان وسلمهم بعض المراكز الحساسة ولكن ذلك لم يعد الثقة بهم .

توصلت الأطراف الثلاثة إلى الاتفاق النهائي في أواخر شباط ولم يبق الا تحديد الموعد . ولم تكن القيادة غافلة عنها كل الغفلة وخاصة نشاط العقيد الحريري فقررت نقله ملحقاً عسكرياً فأخذ يسوّف ويماطل .

أخذ الناس ينتظرون الانقلاب بين ساعة واخرى يتناقلون اخباره لا تخفاهم خافية ، يعلمون كل شيء عن القرارات السرية .

مباشرة بعد انقلاب شباط في العراق زرت الاستاذ ميشيل عفلق . قال لي : هل جنّ العسكريون الحزبيون؟ يجب، ان يتريثوا لان الحزب لم يكتمل تنظيمه وسيكونون في الحكم بلا قاعدة شعبية فتذهب ريحهم .

أجبته انه لم يعد مستطاعاً التريث . كان يلح على التأجيل ريثما يثبت حكم البعث في العراق ويتمكن من الوقوف على قدميه في سورية . كان الاستاذ عفلق في قمة التفاؤل سعيداً واضح الرؤية وحدثني عن مخاوف صدقت جميعاً فيما بعد . قال لي : العسكريون يظلّون عسكريين واخشى سيطرتهم على الحزب وعندئذ يسقط الحكم في العراق رغم قوّته لان العدوى اذا انتقلت اليه سببت الفوضى فالحزب هناك متين لا يسلم امره بسهولة ، اما هنا فسنقع في تناقضات خطيرة . واضاف: يجب ان نحسب حساب الانتهازية قبل النصر ، انّها خطيرة في مثل الظروف التي نعيشها ، ان الحزب لن يستطيع السيطرة على قواه .

في اواخر شباط اتصل بي العسكريون وطلبوا مني ابلاغ الاستاذ

صلاح البيطار انه سيكون رئيس اول وزارة في الانقلاب فرحّب بالفكرة .

في اوائل آذار عقدت اجتماعات عديدة بين الأطراف الثلاثة وقر الرأي على تحديد ٧ آذار موعداً للانقلاب بأن تنطلق قوات من الجبهة إلى دمشق تدعمها القوات المرابطة في السويداء ويتجه اللواء الخامس من حمص اليها .

في اليوم الخامس من آذار ابلغ الوحدويون البعثيين والعقيد حريري انهم يفضلون ارجاء الحركة والتسرب قليلا قليلا إلى الأركان والقطعات ما دامت القيادة نفسها تعمد لتعيين الوحدويين فيها والقيام بانقلاب ابيض. وتبين فيما بعد انهم كانوا يعدون الحركة وحيدين في ١١ آذار .

في اليوم السادس بدأت حملة اعتقالات بين رفاق العقيد حريري والبعثيين لا تدع مجالا للشك بأن القيادة على علم بما يجري في السر وانها مصممة على ضرب الفئات الوحدوية واحدة بعد اخرى .

جاءني بعض الضباط المسرحين مساء وابلغوني ما حدث .
قلت لهم : من يتحرك الآن ينتصر ، السرعة هي كفيلة بالنجاح . لقد بات اي تأخير لغير صالح الوحدويين جميعاً . الثانية اصبحت هامة . ان قوة صغيرة تنهي الحكم فقد نضج نهائياً واذا اتيحت له فرصة مهما كانت رمم قواه امام الخطر لان القوى التي تصارعه بدأت تقنط من امكانية النجاح .

في ٧ آذار مساء جاءني الرائد المسرح عبد الكريم الجندي وقال لي : انا مطارد ، سأذهب الساعة للجبهة . لقد قررنا القيام بالعملية الليلة .
قلت : حسناً .

وقبعت قلقاً لا استطيع النوم . في الساعة الحادية عشرة مساء رن جرس الهاتف . كان المتكلم احد رفاقنا في السويداء. قال لي : في الجبهة عملية انقلاب .
قلت : ممكن .

سألني : هل هي معنا ام ضدنا .

فهمت ان القطعات تتردد . كانت ساعة حرجة وانا اعلم ان هاتفي مراقب . قلت له : انه انقلابنا نحن يجب ان تتحركوا .

وجلست انتظر ان يقبض علي . كنت مريضاً لا استطيع الفرار ولكني شربت فنجان القهوة الذي اعددته دون ان يطرق بابي احد .

علمت ، بعد خروجي من سجني الاخير ، ان العقيد عودة آمر اللواء السبعين آنئذ كان نائماً في بيته على بعد خطوات من بيتي وان ثمن نومه كان تعيينه ملحقاً عسكرياً في باريس بعد الانقلاب .

في الساعة السادسة طرق بابي مرة ثانية الرائد المسرح عبد الكريم الجندي بثيابه العسكرية يقول : انتصرنا . والاذاعة تبث موسيقى عسكرية وبيانات صباح ٨ آذار .

محال ان يحيط العقل بأحداث حكم آذار وتطوره لانه ضد العقل والمنطق ، كل عقل ، كل منطق .

لم يعرف تاريخ الشعوب والقبائل المتوحشة فوضى تحللت من كل خلق مثله ، كل تعليل خطأ ، كل تسلسل في الحوادث خطأ ، مهما جهد المرء في ان يرد الأمور إلى اسبابها كي يقيمها فشل. فالعلاقة الطبيعية بين الأسباب معدومة . مهما حاول أن يقيم علاقة بينه وبين الحكم سياسية أم انسانية ما استطاع . لا يعرف المسئول اذا كان مسئولا ولا الموظف إذا كان موظفاً ولا المواطن اذا كان مواطناً ، زالت كل القيم وكل ما يحدد الروابط الاجتماعية . كل الاحكام صحيحة وكلها غلط .

تظن نفسك في دوامة آذار مسؤولا ومخططاً تعدّ التاريخ فإذا أنت لا شيء ، ثم ترى بعد قليل انك هام جداً ، ثم لا شيء .

كنت خلال فترة الحكم افكر أين انا فلا اعلم ، ثم أخذت أفكر ما أنا فلا أعلم ، ضللت حتى عن ذاتي .

كنت أراجع ما كتبت قبل الحكم أبحث في ماضيّ عن افكاري وايماني فأستغرب أن يكون الوزير هو أنا نفسي ، ترى ألم تتقمصني

روح اخرى ؟ لم أكن انتهازياً ولم اكن مثالياً وكنت انتهازياً ومثالياً. لم تمر بي فترة قلقت بها حتى اليأس وتعذبت حتى البؤس مثل الفترة التي كنت فيها مسؤولا ، كنت أقف كل يوم ضدّ وجداني عدد الدقائق متعلّلا انها مرحلة قصيرة تنتهي ولكن سلوكي نفسه ساهم مساهمة فعالة في إطالتها .

كنت أعود إلى كتيب صغير فيه مبادىء الحزب واقارن بين الأمل والواقع ، بين ما يمكن تحقيقه وما نصنع ، بين ما كنّا نقول وما بتنا نقول ، بين وعود وعهود اعطيناها للبسطاء وسوط لوحنا به على رؤوسهم وأدمينا به جلودهم فأحسّ بالخجل يفتّت اعصابي .

أمة عربية واحدة ... نعم نحن وحدويّون نعيش من اجل الوحدة ونموت من اجلها ، حياتنا لها ، حزبنا لها : وجداننا القومي .

ذات رسالة خالدة ... ونحن المعبرون عنها ، نحن نوع من الأنبياء في هذا العصر ، لم يمدّنا الله بالوحي ولكنه اعطانا صفاء السريرة والحبّ ، لقد اختارنا لايمان مطلق بالشعب ، نلمّ شعث احزانه ، نحترق بعذابه ، نجوب الآفاق كطهرة صوفيين ، نبحث عنه كي نوقظ موات روحه ، ننتشل الحياة من وهدة العدم ، نصوغ الفرح من الشقاء والرجاء من الدموع ، نبدع عالماً جديداً وانساناً جديداً ، هو الانسان .

كذلك كنت اتحدث لأطفال القرية ، لكل بشرها ، صورتهم لما تفارق خيالي ، تظل تطرق باب ذاكرتي تنهش أعصاب الوزير في حكم آذار .

كنت في ساعات الهدوء أراني في مكتب الحزب في القرية أقف فأشير لعريف الاجتماع فيهتف : أمة عربية واحدة ... ويردد المجتمعون ذات رسالة خالدة ... ثم اتحدث طويلا عن ربع قرن من الزمن نركز فيه راياتنا على راحة السهل وصهوة الجبل ... وآذن ربع القرن بالانقضاء فأحسست ان يدي تتلمّس الراية الدانية ، وانتهى ربع القرن فنزلت الراية عن ثكنات القنيطرة .

ما كنت اقدّر اني استقبل الثامن من آذار بالقنوط ، استمعت إلى البيانات فإذا بها تحفل بالعجيب من اسلوب ركيك مبتذل ، صوت المذيع كان منفراً . تلك اشياء صغيرة هامة جداً في فجر انقلاب . ان الصلة الأولى بالشعب يجب ان تكون جميلة ، هو دائماً كالطفل الذي يفتح عينه اول مرة على الرؤية ، اذا لم تعجبه الصورة فقدت روعتها في ضميره .

حاولت ان افهم ما تعني البيانات فلم استطع . ظن كثيرون انها لمعة ذكاء ، أراد كاتبها ان يخفي النيّات ولم تكن غير بادرة غباء دفعت الناس إلى الريب . ان كاتب البيان الذكي هو الذي ، اذا اراد ان يبطن اشياء ، ابدى بعضاًمن خطته على الأقل كي يدفعك إلى الأمل دون ان يحدد كل ما يريد ولكنه يجب ان يقول شيئاً ما ، شيئاً واضحاً .

علمت بعدئذ ان القائمين على الانقلاب ارادوا ان يرضوا احد الضباط فكلفوا أخاه بكتابة البيانات وإلقائها ، فصرخ وأعاد وكرر حتى استسلم حلقه للبحة فأراح المستمعين. وسمعنا خطباء آخرين منهم المدني ومنهم العسكري يتدرّبون وقد اعجبهم الميكرفون على الالقاء ، مقدمة لقيادة الجماهير .

استدعي مساء كل الوحدويين إلى الأركان العامة لتشكيل الوزارة ما عدا الوحدويين الاشتراكيين . زارني بعض الضباط وابدوا استغرابهم . قلت لهم : لسنا راغبين في هذه المشاورات ولا في دخول الوزارة ، نفضل أن نبقى شاهداً على تطور الأحداث. وأكدت اننا سنبقى معهم إذا نفذوا اهداف الانقلاب .

رفض الوحدويون (أعني الجبهة العربية المتحدة التي كنا اعضاء فيها والقوميون العرب) اشتراكنا لاننا بعثيون زيادة عددنا في الوزارة يعني عندهم زيادة (حصة) البعث ولم يتحمس لنا البعثيون لاعتبارنا زيادة في (حصة الناصريين) ، بعثيين قدامى منحرفين .

بعد نصف الليل جاء من يوقظني . كانت تجري وراء طاولة المباحثات اتصالات بين العسكريين علموا منها ان بعض الضباط

الشباب لم يكونوا مرتاحين لعدم اشتراكي .

ترددت في الذهاب فاقنعني الصديق الذي جاءني . وفي الأركان رأيت ما لم يكن ينتظره خيالي : المدنيون صاخبون متعجرفون ، اصحاب الانقلاب الحقيقيون والعسكريون يقبلون شواربهم ويرجونهم ان يتفقوا ، الفريق لؤي الأتاسي ، واللواء زياد الحريري (رفعهما مجلس الثورة يوم ٨ آذار) يسترضيان ويهدئان ويرجوان واولئك يرفضون ويبازرون كما يفعل دكاني في سوق البزورية . والاستاذ ميشيل عفلق برم صامت . اقتربت منه وسألته : ما هذا ؟ قال : كما ترى .

قلت : ما رأيك ...

قال : شيء مثبط ولكنه من حتمية الوضع . البداية دائماً صعبة .

انتهى تشكيل الوزارة في الساعة السابعة صباحاً بعد ان كاد يفشل الاجتماع عدة مرات . سميت وزيراً للثقافة والارشاد القومي .

من المفارقات العجيبة اني عندما وصلت قاعة الاجتماع وجدت اسمي وزيراً للصحة ، ثم اقترح البعض ان اكون وزير التموين . وتمسك آخرون بأن أكون وزيراً للصحة ... بقي ان اقول اني كنت جد مريضاً .

كان اول اجتماع وزاري مفرحاً ، هاماً جداً علمنا فيه ان القيادة السياسية هي بيد « المجلس الوطني لقيادة الثورة » واننا لم نكن اكثر من أمناء عامين بمرتبة وزير . حتى هذه الساعة لم يختلف الأمر وما يحيطه الشيوعيون والوحدويون لاشتراكهم بالحكم من هالة عجيبة . فالسياسة ليست من صلاحياته ، بل لا يحق له المناقشة فيها ، يطلعه عليها رئيسه اطلاعاً كي يعرف ما يجري فقط . القيادة السياسية الآن قاصرة على قيادة الحزب . مجلس الوزراء لا يستطيع ان يعين موظفاً دون الرجوع اليها بل ليس له الحق باستصدار مرسوم .

تسمية المجلس الوطني لم ترض كثيرين . فقد رأى فيها الوحدويون نقلا عن العراق وتقارباً معه على حساب العربية المتحدة .

وهنا خاض الطيبون معركة « اللامحاور عربية » ولكن المنحازين أظهروا القناعة فقط .

وأخذت تدور بين الكواليس : المتحدة اولا ام العراق؟ وثبت لي بعد زمن ألا مصر ولا العراق : سورية وحدها. فقد كانت الوحدة مع اي قطر من الأقطار لعب بالنار وقلّما يتورط الأذكياء .

لم نجد بيننا العميد الصوفي الذي اصبح فريقاً ولا العميد امين الحافظ الذي سمي وزيراً للداخلية وأبرق من الأرجنتين يعلن قدومه وأخبرنا الفريق الأتاسي ان زميله الصوفي تريث قليلا لتثبيت الوضع في حمص .

كانت الصعوبات فعلا كثيرة فقد هدّد العميد هيثم مهايني قائد الطيران بالضرب .

في الساعات الأولى من ٨ آذار عاد المسرحون إلى الجيش وسريعاً ما تسلموا قطعات ومراكز هامة وكانت العلاقات بينهم وبين اللواء حريري والفريق الأتاسي على أحسن ما يرام .

يوم ١١ آذار فهمت لماذا لم يجىء الفريق الصوفي . كان هنالك انقلاب للوحدويين .

عندما اعلنوا إرجاء عملية الانقلاب عن موعدها المحدد في (٧) آذار عينوا يوم الحادي عشر على ان يقوموا به منفردين ولما سبقهم اللواء الحريري ارادوا استغلال الوضع القلق الذي تلى ٨ آذار وكان ذلك ممكناً لو توفرت لديهم الجرأة والسرعة . ان استغلال ساعات الفرص أصعب بكثير من الساعات العادية ، يتطلب مبادرة ومرونة تخرج عن المألوف تتجاوز الحسابات العادية إلى المغامرة . من يفكر طويلا بالنجاح يفشل ، عليه ان يؤمن به. ثم يجازف ، لا شيء سوى ذلك .

مرت المحاولة لم يعلم بها الا قليلون وأخذ مجلس الوزراء يجتمع ويناقش ويقرر ثم تنبه إلى انه ليس شيئاً . واتجهت العيون إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة فعيّن فيه بعض المدنيين وكنت منهم ممثلا

للوحدويين الاشتراكيين ثم عيّن معي بعد قليل الاستاذ سامي صوفان .

تلك الفترة كانت عجيبة غريبة ، مضحكة مبكية . أخذنا نتحدث عن وحدة ثلاثية ولكن الجوّ في دمشق كان مشحوناً .

دعيت بعد ايام قليلة إلى اجتماع تعقده « الجبهة العربية المتحدة » وكان الأول الذي ادعى اليه بعد خروجي من السجن فوجدت وجوهاً جديدة من بينها الاستاذ يوسف مزاحم . أخذ يتحدث على انه عضو ولم يكن كذلك وأبدى قلقه لما يجري وعتبه لانه لم يدع إلى الاشتراك بالوزارة واخذ يلوم « جماعتي » لنكرانهم الجميل . ظننت انه يعني الوحدويين الاشتراكيين فاستوضحت فإذا به يريد « العسكريين » فضحكت وأكدت له انهم ليسوا « جماعة » احد وان طموح المدنيين جميعاً ان يكونوا جماعة لهم .

كان جو الاجتماع أشبه بمحكمة سرية أنا فيها المتّهم الوحيد فقد ظنوا اني انا الذي تآمرت عليهم وحجبتهم عن مقاعد السلطة . لم يصدقوا تأكيدي العكس فلوّحت لهم بأن الوزارة موقتة ولا بد من تشكيلة اخرى قريبة جداً فهدأت الخواطر . وتطرقنا قليلا إلى موضوع الوحدة وشرحت رأيي الذي بنيته على ضرورة أخذ الامور بالروية والحذر او تعرض التفكير للوحدة بالخطر واتصل بي كثيرون بعد ذلك يعرضون التعاون ولكن الأكثرية ازدادت تشبثاً فيما بعد .

لم يكن خافياً ان القاهرة لم تكن راضية عن ٨ آذار .

كانت مظاهرات الايام الأولى مختلطة تؤيد احياناً وتعارض اخرى ، تهتف لنا وضدنا .

في الاجتماع الثاني للمجلس الوطني لقيادة الثورة الذي حضرته افتتح الجلسة الفريق لؤي الاتاسي قائلا : « يجب ان ننتخب رئيساً للمجلس الوطني يتسلم مهام رئيس الدولة » وسادت فترة صمت قطعها الاستاذ شبلي العيسمي بقوله : «أرشح الاستاذ صلاح البيطار رئيساً».

فأجاب الفريق : « قرر الضباط ان يكون الرئيس عسكرياً » فانتخب بالاجماع .

أخذت جلسات مجلس الوزراء تتسم بالصراخ والنقاش الحاد والشتائم . أما جلسات المجلس الوطني فكانت أهدأ .

كان الشارع في حالة قلق ثائرة يضغط ضغطاً مستمراً. كان ظاهراً ان الفئات الوحدوية لا تريد له الاستقرار وبدأ الشك يتسرب إلى صفوف الذين يتألف منهم المجلس الوطني . كان الوحدويون على اختلاف فئاتهم يستعجلون اعلان عودة وحدة مباشرة ويترك امر العراق لما بعد اما البعثيون فيريدون وحدة تدرس بين أقطار ثلاثة . وجرت اتصالات مع القاهرة وسافر الفريق الاتاسي والاستاذ ميشيل عفلق اليها وتم الاتفاق على المفاوضات الثلاثية وتخلل تلك الايام نزاعات قليلة ومقال « إني اعترض » الذي كتبه الاستاذ هيكل في الأهرام رداً على مقال « كان الشعب في مستودع » الذي ظهر في جريدة البعث . لم اذكر إلا ما له علاقة في موضوع الكتاب هنا ولو شئت لكتبت سفراً طويلا عن الايام التي انقضت بين ٨ آذار و ٢ نيسان يوم غادرنا دمشق للقاهرة .

الوحدة الثلاثية والخلاف الداخلي

« ان العقل الوحدوي فعلا ، لا العقل الوحدوي– المصلحي ولا العقل الوحدوي – الاقليمي ، هو الذي يرى في وحدة الأقطار الثلاثة انتصاراً تاريخياً لا يعادله أي انتصار في تاريخ العرب الحديث . »

البعث (١٦ اذار ١٩٦٣)

أعلنت القاهرة في ٢٢ آذار ان هناك « إمكانيات موضوعية لبناء وحدة اتحادية متكافئة تضم الاقطار الثلاثة » .

جلست الوفود الثلاثة على مائدة المفاوضات وكان الجو حبياً مليئاً بالأمل يخفي ما لا يبدي .

كان الوفد السوري يحتل كل الجانب الايمن وجزءاً من الطرف المقابل لرئيس الاجتماعات الرئيس عبد الناصر. وكان كل منا يغني على ليلاه . ولقد تميزت ٨ آذار بضخامة الوفود التي يضيق بها البلد المضيف [(١)] اما اولها فكان أعجبها ، لولا الخجل من الرئيس عبد الناصر و « عظمة » المهمة التي جئنا من اجلها لكنا بحاجة للشرطة حتى تحل المشاكل بيننا .

لم يكن الجو العام مخلصاً ، بل لم يكن وحدوياً رغم كل ما قيل . كان الوفد العراقي يريد وحدة بلا وحدة ، كل فيها حر التصرف شبيهة بوحدة الجامعة العربية. وكان الوفد السوري ثلاثة اقسام : قسم يريد وحدة مباشرة مع المتحدة تعود فيها الشرعية وثان لا يريد وحدة ابداً ،

---

(١) يجد القارئ صورة عنها في « الأمراء البعثيون في باريس» الذي أنوي طبعه قريباً .

وثالث مؤمن بضرورة الوحدة الثلاثية ، يرى فيها تاريخاً جديداً للعرب .
اما وفد المتحدة فقد كان يظن ان الحكم في سورية قصير الأجل ، يطيح به انقلاب وحدوي قريب . ويوم ١٥ و ١٦ نيسان تأزم الموقف ورفض الرئيس عبد الناصر التوقيع حتى جاء اللواء زياد الحريري من دمشق فاقنعه وذهبنا إلى دمشق نزف البشرى .
كان لامتناع الرئيس عن التوقيع اسباب كثيرة أهمها التالي : في ١٤ نيسان اتفقت الوفود على ان يكون اسم الدولة المقبلة « الجمهورية العربية المتحدة » . فقامت مظاهرات فرح في سورية أخمدت بقسوة اعتبرها البعثيون مناورة لضرب الحكم واكد لي بعضم انها كانت مقدمة محاولة انقلابية . وجربت التأكد من ذلك فلم يثبت لي .
واتخذ الوحدويون الحادثة على انها دليل قاطع على عدم جدية البعثيين بالوحدة. والحقيقة ان بعضهم كان غير جدي .
كلمة بعثيين لم تكن تعني شيئاً . كان هنالك الحزب وكان هناك العسكريون وهؤلاء قسمان : القمة والقاعدة . في القمة لم يكن يجرؤ الوحدوي على التلفظ بكلمة الوحدة ، اما في القاعدة فكانت الغالبية وحدوية . لقد توصلت الى معرفة هذه الأشياء بعد ان أصبحت وزيراً للثقافة والارشاد وعلمت انهم يؤيدون اتجاهي ويأخذون علي اني تخليت عن الحزب واني وحدوي اشتراكي وأخذ بعض منهم يتصل بي ويعلن لي شكوكه عن اللجنة العسكرية . رأيت الواجب يدفعني لتقرير خطة أنفذها . وأرى لزاماً علي هنا ان اشرح بوضوح لم اتخذت هذا القرار .
لم اكن الوحيد الذي يتخذ لنفسه نهجاً مختلفاً عن الآخرين . كل ما قيل عن القيادة الجماعية منذ ٨ آذار حتى الان هو كذب . لم تتخذ الا قرارات فردية . ولو شئت ان اعد القرارات التي اتخذناها مجتمعين ثم عدنا عنها في اليوم التالي او بعد نصف ساعة لما استطعت ان احصيها ابداً. فلا بد من قوة خارقة عقل الكتروني كي يحيط بجزء منها ووجدت لنفسي تبريراً اني انسان بلا طموح بين عدائيين للسلطة ، يمكنني نفوري منها من ان ارى بوضوح .

في مفاوضات الوحدة الثلاثية كنت اراقب الامور فقط. لم اقل غير جملة واحدة هي : « سيادة الرئيس أقترح ان يكون اسم الدولة المقبلة الجمهورية العربية المتحدة . » قضيت فترة المفاوضات صامتاً وما كانت بي حاجة للحديث فقد كان الاستاذ عبد الكريم زهور يعبر عن كل أفكاري ، وخرجت منها بخيبة امل قاسية. فقد وجدت روح المسؤولية الوطنية مفقودة على كرسي السلطة العربية ، التفاهة والجهل يخططان لمصيرنا والانانية الصغيرة المغلفة بالبطولة والتضحية ، كنت ابحث وراء الكلمات والافكار فاجدها نابعة من مصلحة الفرد ، والكلمات الكبيرة لا معنى لها . لو علم المفاوضون ان مباحثات الوحدة تذاع ذات يوم لتغير مجرى التاريخ . ظن كثيرون انهم « يلعبون » على الرئيس عبد الناصر . كنت انظر اليه وارى انه يعاني كبتاً مراً .

كان الحذر مهيمناً : « اياكم والسجلات ! انتبهوا الى كل كلمة .. لا بد ان يكون تحت كل كرسي ووراء كل سرير في قصر القبة جهاز ينقل انفاسكم ... »

وأخذ اكثرنا اذا اراد التحدث مع رفيقه خرج الى فناء القصر او الى مقهى ما . هكذا كنا نصنع التاريخ .

لم أيأس مع كل ذلك حين وقع الميثاق فهو وثيقة يمكن ان تتخذ شعاراً عند الجماهير. وما كنت اقدر ابداً اننا نصل الى افضل منه في مثل الظروف التي كنا نمر بها وجدت انه خطوة الى أمام ولقد عودتنا سنوات المعارضة ان الشعار يصبح واقعاً عندما نتمسك به بعناد .

تشبثي به مرده الى انني اولا وحدوي اعتقد ان شعبنا يظل غير حضاري لا تكتمل انسانيته الا في وحدة . اعتقد اننا في هذه المرحلة صغار على تحقيق مثل اعلى ، نزعم اننا ثوريون ويقصر ادراكنا المتخلف عن رؤيا عظيمة . ان الثورة تاريخ مازلنا نحبو على هوامشه لا تقوى اقدامنا على رحلة كبيرة . الانانية التي تهيمن على الافراد هي صورة عصور الانحطاط التي نحن نهايتها ، ذلك هو تفاؤلي وأظن أحياناً انني أسرف فيه .

انا اؤمن اننا لسنا على قد الوحدة ، لا قدرة لنا على تحقيقها فهي الثورة التي تلغي الماضي المتخلف وتقفز بنا الى الحضارة . وطاقة شعبنا الثورية ما زالت كامنة في خفايا مجهول سديمي نحس به عالما يمور ، ولما تتحقق بعد صورته الحية .

والسياسي هو من « عرف حدّه فوقف عنده » . كنت ارى ان الامكانية الوحيدة التي لدينا هي ما توصلنا اليه ولا بد من المحافظة عليه والعمل كي يصبح واقعاً .

كان تقديري اننا على أهبة خوض حرب مع اسرائيل في مدة قريبة واننا مغلوبون فيها وكنت ارى اننا اذا لم نتوصل الى اتفاق بين المتحدة والعراق وسورية خرجنا من المعركة بهزيمة منكرة وهذا ما حصل فيما بعد.

وفوق ذلك ، كنا ننتظر في الثامن من نيسان ١٩٦٣ انقلاباً في الاردن بعثياً يكمل النطاق حول اسرائيل ويربط المتحدة ببقية الدولة ارضياً مما يجعل الانفصال مستحيلا ولكنه الى ذلك يعرّض الى حرب مباشرة مع اسرائيل فهي تتعرض لو نجح الى خطر جدي . ولا ننس ان القيادة المشتركة كانت من اسباب حرب ١٩٥٦ فكان لزاماً علينا ان نعجل بالميثاق حتى ينضم الاردن اليه عندما ينجح البعث فيه وتكون الدولة قادرة على رد هجوم محتمل .

وفشل انقلاب ٨ نيسان ولكن خطر الحرب بقي ماثلا . وفشلت اسرائيل سنة ١٩٥٦ في تنفيذ مخططها . لم تنجح الا بفك الحصار عن طريق تيران وكان يجب ان ننتظر محاولة أخرى فلقد تعودنا انها عنيدة ، فلا بد وان تعاود الكرة . وهنالك شيء عجيب في السياسة العربية ، فكلما احيطت اسرائيل بنطاق عربي ، انفرط سريعاً دون سبب ظاهر .

منذ عودتنا من القاهرة أخذت الامور تتطور من سيئ الى اسوأ وخضنا دوامة المكتب السياسي الذي نصّ الميثاق على وجوده فهو الذي

يدير دولة سورية في مرحلة التمهيد للوحدة : من الذي يكونه وكيف يتكون ؟ وعادت نغمة الحصص . البعث يطالب بنصف والوحدويون يطالبون بمقعد لكل من الحركات المشتركة بالحكم اي مقعد للجبهة وآخر للقوميين العرب وثالث للوحدويين الاشتراكيين ورابع للبعث. وتمسك كل فريق برأيه رافضاً كل الحلول . اقترحت حلا وسطا: مقعدان للبعث ومقعد واحد لكل من الحركات الثلاث فيكون الوحدوي الاشتراكي حكماً ومرجحاً في حالة تساوي الاصوات . ورفض الاقتراح .

لم اشك لحظة في ان مناقشات المكتب السياسي لم تكن غير عراقيل توضع في وجه الميثاق [1] وقرر الوحدويون الاستقالة من الحكم ورفضت انا . قررت ان استمر . ووقف مني الوحدويون جميعاً موقفاً سلبياً . طلبت من قيادة الوحدويين الاشتراكيين جلسة أحاكم بها استمرت اكثر من ساعتين حاول بعضهم فيها ان يلف الموضوع اكثر من مرة فرفضت. وعرفت كل الشكوك التي كانت تحوم حولي والتهم التي توجه الي دون ان يحدثني عنها احد منهم فبرهنت على خطأها وألقيت السؤال التالي : هل زال كل سوء ظن عني . فاجبت بنعم . هل تعتقدون ان علاقتي معكم كانت دائماً نظيفة فكان الجواب ايضاً نعم . هل زالت كل

---

(١) لم آخذها أبداً على محمل الجد فالحكم كان اولا وآخراً للعسكريين. هم الذين يقررون الوحدة او استمرار الانفصال ولو اتفقنا على المكتب السياسي لوضع على الرف . كان على السياسيين ان يزيلوا الخلافات بين البعثيين والوحدويين العسكريين اولا ولم تكن في الاصل مبدئية الى الحد الذي زعموا والوصول الى اتفاق بينهما على الوحدة وحينئذ يأتي دور المكتب السياسي .

كان السياسيون الوحدويون يتكلمون دائماً باسم الشارع والجماهير ولم يكن خافياً انها كانت الى جانبهم غير ان القوى الشعبية كانت اما غير منظمة او فجة التنظيم او قليلة العدد. كان واضحاً اكثر من ذلك ان تحرك الجماهير لم يكن ضمن خطة عاقلة بعيدة المدى مدروسة وانما عصبية نزقة فوضوية ان دلت على شيء فما تدل الا على عدم تقدير الظرف والاحاطة بجوانبه كلها : ان تحقيق وحدة اربعين مليوناً من العرب ليس سهلا ، لا يمكن ان تحققه مظاهرات بلا ستراتيجية ولا تكتيك .

التساؤلات ... نعم. قلت : اذن ارفع استقالتي فأنا لا اعمل في أجواء الشك. واذا كان قد زال الان فقد يعود غداً في الظروف التي نجتازها .

حاولوا ان يثنوني عن عزمي فرفضت .

كنت اشاهد في البعث نمواً مضطرداً في الخط الانفصالي . المنتسبون الجدد او بالأحرى العائدون الى الحزب كان جلهم منه .

استقال الوزراء الوحدويون وبقيت في الحكم فأعلنتْ قيادة الوحدويين الاشتراكيين فصلي عن الحركة وأعلنت ببيان الى القواعد من ناحيتي فصل القيادة وأخذت أتصل بالأعضاء تمهيداً لدخولي ودخولهم الحزب حتى ينمو فيه التيار الوحدوي. ووجدت منهم استجابة كبيرة ، غير ان الحزب رفضهم جميعاً وكانت فيما بعد طلبات انتسابهم وثائق ضدهم دخلوا بها السجن . لم يعد خافياً ان القائمين على التنظيم الحزبي يقصون عنه كل وحدوي .

على اثر استقالة الوزراء الوحدويين سقطت وزارة الاستاذ صلاح البيطار الاولى وكلفت بتشكيلها بعده فاقترحت ان يكون خلفه الاستاذ عبد الكريم زهور لانه اكثر مني خبرة واقنعت أعضاء المجلس الوطني واتصلت به وجئنا معاً الى المجلس واذا به بعد مناقشة قصيرة يقول : « ارى اننا نمضي سريعاً الى مواقع الانفصال . » وقدم استقالته من الحكم ثم من الحزب

قبلت التكليف بتشكيل الوزارة في أشق ظرف مرت به سورية وظللت أياماً ثلاثة فقط رئيساً لوزارة لم تعلن غير انها كانت أياماً طويلة .

عندما يكلّف امرؤ بمنصب في حكم ٨ آذار يجب ان يسأل اولا من اين له هذا ؟

لم يرض الاستاذ البيطار في وزارته الاولى احداً ، تحمل مسؤولية الحكم ولم يكن حاكماً . كان ينتظر الذين قاموا بانقلاب آذار على يديه المعجزات فلم تتم المعجزة في شهر ونصف وجابهته كل الصعوبات. وكان هدف نقد الخصوم والاصدقاء ولم يعجب العسكريين ترشيح الاستاذ العيسمي له رئيساً للمجلس الوطني . وترددت في الكواليس كثيراً :

كيف تريدون ان يثق الرئيس عبد الناصر بمن وقّع وثيقة الانفصال ونحن لا نريد حكمة الشيوخ ... وأهم من ذلك ان الدور الذي جيء به للحكم من أجله قد انتهى باستقالة الوحدويين ... وبدأت عناصر التنظيم العسكري الذي بدأ في فترة الوحدة تطالب بتنفيذ خطتها .

بعد استقالتي من حركة الوحدويين الاشتراكيين جاءني بعض الضباط من الرتب الصغيرة يطالبونني بالعودة الى الحزب ففعلت ولاحظت انهم أخذوا يعلنون لي كثيراً من الثقة . في المجلس الوطني أبدي لي أعضاؤه العسكريون كثير من الود وخاصة الفريق الأتاسي واللواء الحريري والمقدم صلاح جديد ... ووضح لي ايضاً ان تسميتي كانت محاولة لكشف الاصدقاء الذين أعتمد عليهم .

اتفقنا على ان اشكل الوزارة وأبدأ حياتها بالاتصال بالرئيس عبد الناصر واخال أني كنت قادراً على تهدئة الجو والوصول الى نتائج حسنة. كنت مصمماً على بحث الامور جدياً ورفض كل المتاهات التي دخلنا بها من الحصص الوزارية الى المكتب السياسي فالوضع في سورية لم يكن سياسياً أبداً كان عسكرياً بحتاً . كنت اريد ان يحاول الرئيس عبد الناصر كسب ثقة العسكريين والانطلاق بعد ذلك الى تحقيق الميثاق او تعديله اذا اقتضت المصلحة على ان نمهد فنقنع اولا بالتعديل العناصر التي يعتمد عليها الحكم ولا بد لذلك من فترة هدوء .

بدأت تشكيل الوزارة من عناصر فنية تتمتع بسمعة حسنة . فضلت ان أبعد عنها الطابع السياسي وان أعطيها صفتها الحقيقية فلا ألعب لعبة الواجهات لم يكن الظرف يحتمل المناورة .

كانت الاتصالات الاولى مخيبة للأمل . لم أتصل بأحد واقنعته الا وبلّغني اعتذاره بعد قليل . ظللت اتابع عملي حتى الساعة السابعة والنصف صباحاً. حوالي الساعة الرابعة ذهب الاستاذ ميشيل عفلق وهو يقول لي : « دكتور يجب ان تعلن وزارتك قبل الصباح والا فلن تنجح ومن الضروري ان تنجح . »

كان خلال الليل عاطفياً ، الوحيد الذي ساعدني بين المدنيين .

نبهتني كلمته الى اشياء كثيرة ورأيت اني أدور في الفراغ وفضلت التريث حتى تنكشف الاشياء فأعرف ما أجهل .

اتصلت بي الاذاعة . قال لي المذيع : لقد حانت النشرة فهل تمّت الوزارة ؟ قلت « لا ! » كانت الاسماء كاملة ، جاهزة للنشر وفضلت التريث. كنت اريد الا تعيش في قلب المناورة والظلام .

استرحت قليلا وعاودت اتصالاتي . وجدت القصر الجمهوري في حال عجيبة يعج بالضباط واكثرهم المقرّبين الى الكبار ورأيت رغم التأكيدات ان الشغب كان مدروساً . كان علي ان استمزج كلا منهم على كل اسم اتصل به كما يبدو . وأخذ بعض وزراء الليل يعتذرون صباحاً . ولعبت المخابرات دورها (١) كان هاتف القصر الجمهوري مراقباً (حتى الارقام الخاصة) كلما اتصلت بمرشح جاءه التهديد فجاءني معتذراً . كان الوحدويون على اختلافهم يتصلون يثنون عن العزم ويهددون.

انتشر جو الذعر في دمشق واكتملت الوزارة للمرة الثانية ولم اعلنها في نشرة الظهر واذا باذاعة صوت العرب تشن علي حملة فظيعة ، ارادت ان تقطع الطريق على امكانية الاستقرار في تلك البرهة وكان دعمها ضرورياً للنجاح . كان الاستمرار يفترض حزماً لم تكن لدي امكانياته .

حوالي الساعة الثالثة جاءت مجموعة الروّاد الى القصر بعد ان تناهت اليها الاخبار ـ مهددة متوعدة فاستطعت تهدئتهم وافهمتهم اني ارفض تشكيل وزارة في هذا الجو . كان ذلك يعني استقالتي .

أخذ اعضاء المجلس الوطني يجرون اتصالاتهم ففشلت جميعاً واستمرت حتى الصباح لعب فيها العقيد محمد عمران دوراً كبيراً وفشل. ركز اتصاله الاساسي على الوحدويين الاشتراكيين فثارت عليه النقمة .

أذكر انه قال لي يومئذ : ان النهاية سيئة والتلاعب خطير في المساء رأى اعضاء المجلس الوطني الا سبيل غيري واتصلوا

---

(١) تكوينها كان خليطاً عجيباً لا يختلف عن تكوين الجيش وكتله ولكن حساسية هذا الجهاز جعلت منه خطراً على كل محاولة تهدئة .

بالفريق الصوفي واللواء قطيني فرفضا فطلب العسكريون البعثيون ان يختلوا بهما ثم خرجوا وقد قبلوا. وعلمت انهم وضعوا امامهما معلوماتهم عن نشاطهما فأسقط في ايديهما . كان منظر المدنيين مضحكاً ونحن ننتظر المناقشة حتى نتلقى الاذن بالخروج من الازمة . وجرى الاتفاق على ان أرئس الوزارة بثلاثة نواب : الفريق الصوفي ، واللواء قطيني والعميد امين الحافظ . وترك القصر الاولان. وبعد حوالي ساعة اتصلا بي وابلغاني الاعتذار. واجتمع المجلس الوطني فاقترحت العودة الى الاستاذ البيطار ما دام معنى وجودي رئيساً قد زال. وقر الرأي على التريث حتى الصباح. فهمت ان العسكريين يريدون ان يجتمعوا وحدهم .

في الساعة الثانية صباحاً طرق بابي بعض الضباط. طلبوا مني اسماء الوزارة لنشرها رضي من رضي وابى من ابى .

قلت لهم : ارى ان الظرف خطير ولا بد من الحزم والقسوة والمجازفة . انتم تعرفون اني ضد الدم ولكني اعتقد ان التردد اليوم سيريق دماء كثيرة ولن نصل الى الاستقرار أبداً ، سيدور الحكم في دوامة اللاجدوى وانا مستعد اذا تسلمت مسؤوليات جدية ان اتحملها كاملة واطالب بها مطلقة والخطة ان اعلن ان الامناء العامين يتولون معي موقتاً صلاحيات مجلس الوزراء الادارية وانتقى الوزراء فيما بعد فلا يدخل الوزارة الا من يكون على قد المسؤولية ، بعيداً عن عقلية المناورة . اذهبوا وتشاوروا في الامر فان حزمتم امركم على هذه الخطوة ابلغوني وآخر موعد هو الساعة السابعة التي القي فيها بياناً أشرح فيه كل الملابسات دون استثناء .

في الساعة الثامنة والنصف اجتمع المجلس الوطني لقيادة الثورة وبدأ الحديث اللواء زياد الحريري بقوله : قر رأينا نهائياً على ان تشكل انت الوزارة فاقترحت الاستاذ صلاح البيطار وأخذت الاصوات عدة مرات فأيد التصويت اقتراح اللواء حريري وكنت اكرر الرفض فاقتنع المجلس اخيراً برأيي وأصبحت وزيراً للثقافة والارشاد والاعلام .

في اليوم الاول القيت بياناً عن اسباب استقالتي يلخصه بيتان لبهاء

الدين زهير اوردتهما فيه :

لا قلت انت ولا سمعت انا
هذا حديث لا يليق بنا

ان الكرام اذا صحبتهم
ستروا القبيح وأظهروا الحسنا

بعد ان اذيع البيان اتصل بي الاستاذ ميشيل عفلق مهنئاً : لم اسمع منه قبلا مثل الذي سمعته من اطراء وتقدير .

كنت انتظر ان اجاب على البادرة بمثلها وان يقدر السياسيون والوحدويون منهم خاصة الظرف الذي كانت تمر به سورية والذي كنت اشم منه رائحة الدم .

قرأت الصحف وتعليقات الاذاعة. كان الهجوم عليّ غريباً لم يأبه احد للمستقبل القريب ، لم يدركوا ان التهجم خلق عداء للوحدة وعرّض فيما بعد سورية إلى هزات كان يجب ان نجنبها اياها . وهيهات ان تقوم وحدة اذا لم تظل سورية هي سورية .

بعد استقالة الفئات الوحدوية من المجلس الوطني لم يبق فيه غير العسكريين والبعثيين . طلب مني الاستاذ ميشيل عفلق ان اقترح إضافة بعض الاعضاء فسألته من يريد : قال الدكتور نور الدين اتاسي والأستاذ حمود الشوفي ففعلت . ووافق المجلس ودخلا اليه تلميذين حيين مهذبين ساهرين على راحة الاستاذ وتنفيذ رغباته .

كان المجلس الوطني بلا نظام داخلي وكلفت بذلك ففعلت. وجاء توزيع المراكز فوجدت ان عددنا القليل ليس منسجماً وانه من الضروري تدخل السيمياء حتى يكون المجلس فعالا وخاصة بالنسبة للعسكريين . اذا رئس الفريق الأتاسي لجنة فيجب ان ننتقي لجنة مماثلة لها قيمة ومعنى ووزناً للواء حريري او اخترعنا لجنة جديدة ، لا يجوز ان نجمع العميد الحافظ والعقيد عمران في لجنة واحدة وما كان المدنيون يتنبهون إلى هذه الأمور . وبدأت عمليات الحبو إلى السلطة من رضي

عنه عسكري من الصف الأول انتفخ فاذا لم يجد بحث في الصف الثاني فكانت نفخته اقل .

اخذت تدور الدائرة حول اللواء زياد حريري . كانت الفكرة التي اخذتها عنه جيدة . انقسم البعثيون العسكريون إلى قسمين معه وعليه فكلفت بان اطلب منه الانتساب إلى الحزب ففعلت فرفض . وكان ذلك يعني رحيله . وألحيت عدة مرات فرفض قائلا يجب ان ان يبقى الجيش عسكرياً . كنت اعلم انه ضابط كفوء وان يوماً سيأتي نفتقد فيه الضباط الأكفاء . ولكن الحزبيين كانوا يعتبرونه خطراً على حكم الحزب ما لم ينتسب اليه .

في منتصف حزيران ذهب في وفد إلى الجزائر ولما عاد وجد ان « جماعته » قد نقلوا او سرّحوا . وتدخلنا – أعني المدنيين – لاعادة المياه إلى مجاريها فلم تعد. وفي الثامن من حزيران ذهب إلى باريس سفيراً بلا سفارة وتفرغ البعثيون لبعضهم فقد كان آخر القوى التي تجمعهم دفعاً للخطر .

انعقد في تلك الاثناء اول مؤتمر قطري للحزب بعد الثامن من آذار . كنت عضواً فيه . كان الجو فيه اقرب إلى التفاؤل . وطالب العسكريون بكل فخر بأن تقرّ اللجان وجودهم في القيادة وطلبوا إليّ ان اتبنى هذا الرأي ففعلت كما اتصلوا بأكثرية اعضاء المؤتمر كل على حدة . وجدت الطلب معقولا فقد كان الحزب في الجيش اكثر عدداً منه في الشعب . وانتهى المؤتمر بسلام بعد ان اقرلهم ثلاثة اعضاء من أصل ثمانية . لم يعترض احد . لم يطلبوا حتى بالاشراف على الفرع العسكري او معرفة ما يدور فيه .

كان الوحدويون يعدون لإنقلاب . وفي الثامن عشر من تموز اطلقت النيران على الأركان العامة حين كان وفد المجلس الوطني لقيادة الثورة برئاسة الفريق لؤي الأتاسي وعضويتي مع العقيدين فهد الشاعر ومحمد عمران في الطائرة إلى القاهرة لاقناع الرئيس عبد الناصر بعدم الانسحاب من ميثاق ١٧ نيسان . سقط في ذلك اليوم نحو ١٧٠ قتيلا .

عدنا في اليوم التالي وكان منظر دمشق رهيباً . سألت عن بائع البطيخ الذي كان يبيع بضاعته على اول طريق دمر . كان صديقي . قيل لي قتل . كان يعيب علي بقائي في الحكم أجلس اليه كلما تعبت من العمل فنأكل البطيخ معاً . تكفي مثل هذه الحادثة كي تبدل اعماق الانسان وحياته .

انعقدت المحكمة العسكرية واخذت تقتتل . كانت المحاكمات فريدة عجيبة استمتع فيها الحزب جميعاً واعتبرها ثورية ونضالا . ضربا للروتين المتعارف عليه كان يجر المتهم إلى الخشبة وتعصب عينيه ويبلغ او لا يبلغ قرار المحكمة الشفهي ثم يصدر الأمر ويطلق الرصاص . بعضهم مات على الطريق إلى خشبته . قال لي صديق اوقف آنئذ لانه اوقف لا لسبب آخر . كان يكره بعض الضباط فجاؤوا واوقفوه ثم اخرجوه من المهجع وعصّبوا عينيه وربطوه إلى الخشبة فثارت نخوة احد الضباط ومنعهم من قتله .

كان جو دمشق عجيباً . في الساعة الخامسة كنا في القصر الجمهوري واذا بالرصاص يلعلع من كل صوب. وجاءنا نذير ان هجوماً اتجه إلى القصر. وصعد بعض منا إلى السطح كي نتبين من اين يجيء الهجوم . دام اطلاق الرصاص حتى المساء واذا القصة بسيطة: حارس قومي شك بآخر فصرخ فلم يجب فأطلق رصاصة فقامت الساعة .

طالبت المجلس الوطني ان تكون اذاعتنا هادئة وان نجانب اسلوب السباب فأجبت إلى ذلك . ولكن كثيرين اعتبروا انها بادرة انحراف ناصرية .

ذهبت مساء إلى وزارة الاعلام كي اشرف على نشرات الأخبار والتعليقات فجاءني أحد موظفي التلفزيون يقول لي « هنالك شريط أرجو ان تراه قبل إذاعته لا أجرؤ أن اعترض عليه أنا وأرجو ألا يعلم أحد أني نبهتك اليه » .

وفي ستوديو التجربة رأيت ما لا يصدقه العقل . رأى اعضاء المحكمة ان يشترك الشعب بمباذلهم فلا تفوته مسرّات النصر فعمدوا إلى تسجيل مشاهده : الاعدام من المهجع إلى الخشبة ، عملية عصب العينين الامر باطلاق النار ثم يندلق الدم من الفم وتنطوي الركبتان وينحني الجسد إلى الأمام بعد ان تتراخى الحبال نفسها ، وفمه مفتوح كي يقبل امه الأرض .

لم اقل شيئاً . خرجت فسألني اخد الضباط مرحاً :

ــ كيف رأيت يا دكتور ؟

قلت : أهذا هو البعث ؟

قال : لم أفهم .

أجبت : لن تفهم !

وإذا بالاستاذ البيطار يدخل لاهثاً قال لي :

ــ هل صورت فعلا مشاهد الإعدام ؟

قلت : نعم .

قال للضباط الموجودين : إياكم ان تنشر ، إنها قضية عالمية. وظل هناك حتى قص المختصون كل المشاهد المثيرة ولكن بعض الصور تسربت إلى خارج سورية .

اقنع بعضنا بعضاً ان التوتر -كان سبب ما حصل وانها ازمة عابرة تنتهي خلال ايام . واخذنا نسأل بعد ذلك فنسمع التأكيد بأن السجناء يرفلون في نعيم مقيم ، لا ضرب ولا تعذيب وصدقنا ، ثم علمت بعد شهور عديدة ان الرفاق تعوّدوا عادات جديدة فأخذوا حينما يملّون رتابة حياة الآخرين ، يذهبون إلى سجن المزة بكل وجوديتهم فتفرش الموائد وتدار الراح ويؤتى بالمتهمين للتحقيق وتبدأ الطقوس الثورية فيفتنون ويبدعون كل يوم رائعة جديدة .

اظن « الدولاب » من اكتشافات آذار .

بقي ان نسأل من هو المتهم ؟ كل الناس ... تقرير بسيط على ورقة رفاقية تبدأ بأمة عربية واحدة وتنتهي بالخلود لرسالتنا تعني

شهوراً في الزنزانة وإنساناً محطماً مدى الحياة ... رحم الله البدايات الجميلة.

بعد تموز استقر الجو وما عادت اية قوة تستطيع زحزحتنا. وابتلع كثيرون منا بعض « نزوات الشباب » مؤملين بخير كثير بعد ان انتهينا من المؤامرات واخذنا نظن ان يوماً قريباً يأتي فلا تتبهنس الدبابات صباح مساء في شوارع دمشق. وبدأ التآمر داخل الحزب.

أخذ العسكريون ينفذون الخطة التي وضعت في فترة الوحدة ايام بدأوا تنظيمهم، وبدأت تظهر للعيان الأحقاد الرفاقية والعدو للسلطة.

تحدثت كثيراً عن المجلس الوطني وعن قيادة الحزب وفاتني ان اقول انهما كانا لا معنى لهما إطلاقاً. منذ الثامن من آذار وحتى الساعة ورغم كل الصور والخطابات الحماسية والألقاب لم يصبح لأي مدني وزن اطلاقاً.

كانت تجتمع اللجنة العسكرية فتقرر وتتوزع الأدوار ويهمسون بأذن الحزبيين القياديين فيتخذون موقفاً موحداً معهم دون مناقشة. بينما يقضي النظام الحزبي بتنفيذ اوامر القيادة الحزبية. ولما اصبح المجلس الوطني مؤلفاً من الحزبيين فقط وبعض العسكريين من الذين انتخبوا يوم الانقلاب سهل الامر وبات الحكم غنيمة سهلة عند المدنيين فما فكروا بالحزب. فأووا إلى ظل الجزمة ونعموا بعبيرها. لا انكر ان الاستثناء الجدي الوحيد كان الاستاذ ميشيل عفلق.

كان احدنا إذا دارت على رفيقه الدائرة طرب جذلا ولم يكلف العسكريين مشقة اهانته، عدا اليها عدواً.

اخذوا يندسون بين العسكريين، درسوا كل خلافاتهم الشخصية وسعّروها وجنوا ثمراتها. رأيت وزراء كان جل طموحهم وظيفة متواضعة.

اما العسكريون فقد بدأت تظهر عليهم ايضاً اعراض مخيفة. اخذوا يستولون على كل شيء ويتسابقون على المراكز الحساسة: يريدون ان يظلوا في الجيش ويريدون ان يكونوا وزراء واعضاء في

القيادة الحزبية . يريدون كل شيء ، لا يعرفون ما يريدون .

ابان تموز وصل الحماس بحزبيي العراق إلى الأوج واعلنوا الجيش للتدخل. وجاءتنا برقيات التأييد والرسائل تحفل ببلاغة غريبة : « اسحقوهم حتى العظم ، إذبحوهم ، اقتلوهم .. » جاءنا ايضاً شعر كثير اهمه عصماء للشاعر الفريق مهدي عماش عارض فيها الأبيوردي واستباح النحو بالأمر فجرّ المرفوع والمنصوب عنوة واقتداراً .

وتتالت الزيارات بين البلدين .

كنت اقرأ الصحافة وتقارير الخارجية فرأيت ان دولا كثيرة استقبلت نجاحنا بالترحيب واطمأنت إلى فشل ميثاق نيسان وإلى عدم امكانية قيام اية وحدة عربية . كان التشجيع واضحاً . وقدرت انه من الممكن الخروج من العزلة التي عانتها سورية منذ ٢٨ ايلول حتىئذ .

قال لي الاستاذ حمود الشوفي ذات مساء : « أريد ان اتحدث معك في موضوع هام » . قلت : « أهلا وسهلا » قال : نحن نعرف آراءك كلها وهي نفس آرائنا وقد قررنا ان نفاتحك ببعض الأمور لنتفق معاً فخبرتك هامة ونحن على بيّنة من صلاتك بالضباط ولا نشك بنفع تعاوننا معك .

قلت له : من انتم ؟

قال : انت تعرف من نحن فلا تتغاب .

لم يكن سهلا ان اعرف من هم ولم يكن صعباً ولكني كنت اريد ان اعرف إلى اي مدى يمكن ان يتفقوا ويستمروا . فقد كان المدنيون على أهبة التنقل حيث شاء لهم الهوى والتكتلات العسكرية التي اخذت تتوضح هويتها سريعاً بعد ١٨ تموز .

قلت له : عندي فكرة غير واضحة .

قال : اسمع . اقول لا تتغابَ فأنت تعرف تخطيطنا ونحن نعرف انك مؤيد له . لقد قررنا الخلاص من الاستاذين البيطار وعفلق ونريد ان نخلص منهما ولكنك تعلم ان الاستاذ عفلق ليس سهلا . انه قادر على تحطيمنا فهو خلافاً لما يظن الناس ومظهره الضعيف قوي

عنيد ، تؤيده غالبية الحزب . اما الاستاذ البيطار فأمره هين وهو يشلّ الدولة ، غير صالح لرئاسة الوزارة ولولا تشبثه بها لانتظرناه بعض الوقت .

بدأ اذن تنفيذ خطة اللجنة العسكرية ضمن الحزب .

قلت له : أرى ان الوقت لم يحن لمثل هذه المشاريع . نحن المدنيين يجب ان نحرص على الصلات الحزبية الموضوعية ، لا تغرنكم صداقات الطموحين . انهم سيبتلعون الحزب ويبتلعوننا معه وليس لنا عليهم سلطة الا النظام الحزبي . انا لست على وفاق تام مع الاستاذ البيطار ومن الضروري ان يعرف ان الحزب رقيب عليه والحزب هو الذي يجب ان يقرر فيما اذا كان عليه ان يترك او يبقى .

قال : الشيء الذي اقوله لك هو رأي الحزبيين عامة .

قلت : الأفضل ان يترك الأمر للمؤتمرين دون اللجوء للمناورة .

قال : هذا ما اعني ألست معنا في المؤتمر القادم ؟

قلت : دعني ادرس الأمر قليلا .

ووعدته ان يظل الحديث بيننا .

جرت في تلك الفترة انتخابات حزبية اعدت للمؤتمر القطري الثاني الذي يعقد بعد الانفصال. وقد تدخل فيها الجيش في كل المناطق تدخلا بسيطاً فجاءت حسب الظواهر لمصلحة كتلة الاستاذ الشوفي .

انقسم الحزب في العراق إلى قسمين : مؤيدون للاستاذ عفلق ومعارضون له . ولعبوا دوراً اساسياً في اعادة التنظيم في سورية وأبعدوا ، وبعدهم الاستاذ الشوفي عن القواعد من يخالف خطتهم .

انعقد المؤتمر القطري في ايلول . لم يكن الجو سليماً . حينما جاء دور الوزراء في إلقاء تقاريرهم عن الوزارات تحدثت عن وزارتي الثقافة والاعلام والخطة التي يجب ان تتبع ونبهت إلى ان الحزب يطلب الاسراع في خلق جهاز قادر على اداء رسالة الحزب وبينت اني لا استطيع تنفيذ خطتي قبل اربع سنوات ولذلك رفعت استقالتي لى المؤتمر . لم يصدقني احد من الأعضاء . اعتبروها لمعة ذكاء ماهرة

وتجنباً حاذقاً للنقد فرفضت بالاجماع واستمريت في العمل .

كانت وزارة الاعلام اصدق صورة عن الحكم . كنت فيها كل شيء ولا شيء . استطيع ان اسرح واعاقب من شئت ، متى شئت ولا صلاحية لي في تعيين آذن موقت. فقد خضعت التعيينات في الدولة إلى روتين عجيب بحجة الثورة على الروتين . اضطررت احياناً لتشغيل موظفين شهوراً عديدة دون تعيين رسمي (بعضهم انتظر شهوراً ثمانية) . كان وما زال تعيين الآذن بحاجة لموافقة مجلس الوزراء .

بعد ايام ثلاثة من دخولي الوزارة جاء الرفاق يطالبون بعملية تنظيف واسعة . قلت : انا لا اسرح على العمياء . هاتوا معلوماتكم اولاً. واتصلت بالشعبة الثانية والسياسية فعجبت مما قرأت : فلان من الناس في تقرير الأولى : جاسوس اسرائيلي ، مرتشي ، فلانة قحبة (استميح القارىء عذراً) تعمل في بيت سري (لا ينسى التقرير ان يحدد حتى الأجر) وفي تقرير الثانية : نفس الفلان : مؤمن بالقومية العربية وبثورة آذار واهدافها ، مناضل قريب من الحزب واحياناً نصير او عضو ، فلانة نفسها : من الطبقة الكادحة معروفة في الأوساط النسائية بنضالها في سبيل اهداف الثورة ... حملت جزءاً من التقارير واطلعت عليها المسؤولين ثم اعدت الدراسات طالباً التعمق بها. واستمر الإلحاح على التنظيف وصل الأمر إلى ضرورته دون دراسة ما دمنا قد نسفنا الروتين وكل القواعد القديمة . كنت ألح على ايجاد قواعد جديدة كي تقوم الدولة ولكن احداً لم يهتم حتى الآن بالدولة ، ذلك ان مفهومها معدوم لا وجود له . نستطيع ان نسمي حكم آذار بما شئت يسارياً اشتراكياً متطرفاً ولكنك لا تستطيع ابداً ان تزعم انه أقام دولة الفوضى ضاربة اطنابها في كل اجهزته وتصرفاته . ولم تكن حال الوزارات الأخرى أفضل . كان مقياس نجاح الوزير قوائم التسريحات ، فالحزبيون واقرباؤهم وبنو عشائرهم يطالبون بحقوق النضال والقربى . بدأت قوافل القرويين منذ ما ظهر الحزب

على المسرح تترك القرى من السهول والجبال إلى دمشق . وطغت القاف المقلقة على شوارعها ومقاهيها وغرف الانتظار في الوزارات ، فكان التسريح لزاماً من أجل التعيين وحصرهما في مجلس الوزراء وإلا اخذ الوزراء حريتهم دون النظر لمصلحة الدولة والميزانية .

واهم من ذلك كان المناورون على بعضهم بحاجة لجهاز الاعلام ينتهزون فرصة غيابي فتتبدل روح التعليقات السياسية حتى بات عملي اشبه بعمل الشرطي الساهر على امن الوزارة .

واهم من هذا اعجاب الحزبيين بفتنة ملامحهم ، اذا قامت مسيرة شعبية ضج الهاتف من القيادة القطرية صاخباً : اين المصورون ، أين الاجهزة ؟ فأجبتهم : في المسيرة مع « عدة الشغل وراء كورس الهاتفين . »

كان يضطر المصورون إلى الاختباء عن اعين المناضلين في المسيرات تجنباً للزحام امام الكاميرا . كلما اقترب الحزب من الحكم ازدادت الصعوبات في وزارة الاعلام حتى غدا العمل مستحيلا وكنت ارى ان الجو غير طبيعي ولا ما ينبىء عن امكانية تحسن . كانت استقالتي جدية . ولا انكر اني كنت اتردد . زين لي الغرور والتمسك بالوزارة اني استطيع الاصلاح .

سبقت المؤتمر استقالة الفريق لؤي الأتاسي . فقد اعتبر مهمته منتهية بعد فشل ميثاق نيسان. واخبرنا العسكريون ان لجنتهم انتخبت العميد امين الحافظ قائداً للجيش برتبة لواء وسمته مرشحاً لرئاسة المجلس الوطني فوافقنا . وكان قد لمع نجمه منذ بداية حكم آذار فقد استطاع ان يوقف المظاهرات واظهر شجاعة نادرة في ١٨ تموز .

كانت الأركان العامة بلا رئيس منذ غياب اللواء الحريري وكنا نستغرب ذلك ونلح على ضرورة تعيين خلف له فنجاب لم يحن الوقت . كان الزحام عليها شديداً بين العقيد محمد عمران والمقدم صلاح جديد وتعصب لكل منهما فريق من الضباط دون ان يطلع احد فالجيش سر الاسرار لم يعرف احد من الوزراء ولا القياديين ولا اعضاء المجلس

الوطني شيئاً عنه حتى الميزانية حباً في عدم تسرّب شيء عنه .

كان جو المؤتمر هادئاً ولكنه غير طبيعي . اتصل بي الاستاذ الشوفي وقال : انت مرشح للقيادة فلم اوافق فاقنعني هو وبعض القياديين لان المرحلة صعبة ووجودي ضروري فيها فوافقت وابلغت بعد ايام ان اموراً حدثت تستدعي صرف النظر عن ذلك . وعلمت ان اللجنة العسكرية هي التي رفضت انسجاماً مع خطتها الموضوعة ابان الوحدة . واستقصيت واذا بالسبب هو صداقتي للعقيد محمد عمران . والحقيقة اني كنت حيادياً دائماً ولكن امور الخفاء بلغت حداً يساء فيه الظن بمن لا يعلن ولاءه لأحد العسكريين .

وجرى الانتخاب فسقط الاستاذ صلاح بيطار وانسحب في اليوم الثاني من الحكم كله وباتت البلاد بلا وزارة .

اتخذت القيادة القطرية قراراً بأن يكون اعضاؤها اعضاء طبيعيين في المجلس الوطني لقيادة الثورة مع السوريين من القيادة القومية فوافق المجلس .

واجتمعت اجتماعات كثيرة واتصلت بأشخاص عديدين لتكليفهم واخذ يصارع الاستاذ ميشيل عفلق لحل القيادة القطرية واجراء انتخابات جديدة ينجح فيها الاستاذ البيطار او ايجاد مخرج حزبي لعودته دون جدوى . كان يظن ان المسؤولين عن فشله هما الاستاذ الشوفي والجناح المعارض له في العراق .

كانت تدور في الخفاء معركة رئاسة الأركان . اللواء امين الحافظ يريد المقدم صلاح جديد والعقيد محمد عمران يقاوم . وعرض على الأخير ان يكون رئيساً للوزراء ورفض فقد اعتبر انها مقدمة لاخراجه من الجيش . وطالت المشاورات وكثرت الاتصالات بالاستاذ البيطار لعودته والعسكريون مصممون على ان تكون عودته موقتة .

كانت المصلحة تقضي بعدم حدوث اي تغير في الحكم حتى لا يحس المعارضون بالتناقض فقد خرجنا من تموز اقوى حكم عرفته سورية مظهراً واضعفه واقعاً .

انتهت المشاورات بان اكون رئيساً للوزارة فاستدعتني القيادة القطرية وبلغتني الأمر على ان يبقى مكتوماً حتى موافقة المجلس الوطني. وفي الجلسة التي انعقدت من اجل ذلك طلبت امراً بسيطاً وهو ان يكون العقيد عمران رئيساً للوزارة وانا نائباً له او العكس بالعكس على ان يظل محتفظاً بقيادة اللواء السبعين. وامتدحت امكانياته فأخذ بعضهم حديثي على انه انحياز له وآخرون على انه دخول في مناورة إقصائه عن الأركان .

وبعد ايام استدعتني القيادة واعطتني اسماء الوزراء دون حق في مناقشتها فرأيت ما لذّ وطاب . واجتمع المجلس الوطني للدراسة فكانت الجلسة عجيبة : كل الأعضاء موافقون على ما جاء من القيادة القطرية وما من احد موافق حتى اعضاء القيادة انفسهم . كنت بحكم تنفيذ الأوامر مضطراً للدفاع عن الوزارة والوزراء امام الذين عينوهم وظهر في الجلسة انهم لا يريدونهم .

قلت بعد ذلك : سميت رئيساً للوزارة وانتم تعلمون اني غير راغب ولا تصدّقون وعينتم الوزارة (فعضّ الاستاذ الشوفي كي لا اقول ذلك امام غير الحزبيين ولكني استمريت) وطلبتم مني الدفاع عنها ولكن ضد من؟ ضدّكم انتم ؟ انكم تضعونها في المقلاة قبل صدور المراسيم مما لا ينسجم مع الانضباط الحزبي الذي طلبتم مني التقيد فيه . ارجو ان تسمحوا لي بطي الموضوع وانصح بتأليف وزارة سريعاً او تعرض الحكم للاخطار . وضج الاعضاء يعيبون علي تسرّعي واخذي الدراسة بروح فردية واعصاب ثائرة . وخرجت من قاعة الاجتماع قليلا فإذا بالدكتور أتاسي يعلن بضربة مسرحية انه مستعدّ لتحمل المسؤولية اذا تخليت عنها وخرج إلي فقال : ألا تريد الاشتراك معي ؟ قلت : لا معك ولا مع غيرك وانصحك بألا تؤخذ بالظواهر فلن تنجح بتشكيلها . وحاول فما نجح .

في تلك الاثناء اجتمعت اللجنة العسكرية اجتماعات متعددة قررت بعدها انتخاب رئيس للاركان فنجح العقيد محمد عمران

بثمانية اصوات ضد خمسة للمقدم صلاح جديد . ولكن اللواء الحافظ اعترض ودعا لمؤتمر عسكري لم يحضره العقيد عمران واكتفى برسالة وجهها له يعترض على الأسلوب ويحذر منه . وحصل اللواء حافظ على قرار يخول قائد الجيش بتعيين رئيس اركان له . وسافر العقيد عمران في مهمة حزبية ولما عاد وجد مرسوماً بترقيته لرتبة لواء ، بعد ان اصبح المقدم صلاح جديد لواء رئيساً للأركان ، على الطاولة التي في صالون المجلس الوطني . أمسك بالقلم وبدل تاريخ المرسوم بحيث يظل اقدم من اللواء صلاح جديد بعدة ايام ثم صدر قليلا بعد ذلك مرسوم يجعل اللواء امين الحافظ فريقاً .

بقيت البلاد بلا وزارة يسير الأمور الاستاذ البيطار فقط وفي كل يوم يعرض تشكيلها على شخص جديد وهي تنتظر قبول اللواء عمران فلا يرضى .

عقد المؤتمر القومي السادس في ٥ تشرين الأول سنة ١٩٦٣ فتميز بشيئين: هجوم الاستاذ عفلق على الاستاذ علي صالح السعدي والمنطلقات النظرية .

الهجوم والدفاع كانا عنيفين تكشفت خلالهما أشياء عجيبة. وسمعنا عن التعذيب في العراق والمحاكم الكيفية فإذا حوادث تموز شيء عادي بل بسيط . وانتهى إلى الفشل مشروع الوحدة مع العراق خلافاً للقرار الرسمي وهو : الإسراع بتحقيق الوحدة الثنائية خلال شهرين على الأكثر مما سيأتي بحثه .

كان اسم « المنطلقات » التقرير الإيديولوجي الذي رفعه المؤتمر القطري السوري إلى المؤتمر القومي . كان واضحاً من قراءته اننا امام حزب جديد ماركسي لا علاقة بينه وبين البعث المثالي الذي خاض معركة طويلة في ماضيه ضد هذه الروح « الجديدة » . فجرت عليه تعديلات غيّرت في مبناه ولكن المؤتمرين سمعوا بيمين بعثي رجعي ويسار تقدمي .

تميز ايضاً المؤتمر بشيء ثالث وهو عدم نجاح اللواء محمد عمران

عضواً في القيادة القومية خلافاً لما قررته اللجنة العسكرية . وقد جرت العادة حتى ئذ ان تقدم مرشحيها فيفوزون بالتزكية . كان ايضاً غائباً في مهمة في العراق . فأخذ موقف القيادة القطرية يضعف .

وافق اللواء عمرأن على ان يكون رئيساً للوزراء في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ واشترط قبول برنامج للحكم طويل وافق عليه المجلس الوطني لقيادة الثورة . وفي جلسة تقديم الأسماء اقترح ان يكون نائباً لرئيس الوزراء الذي يجب ان يكون الفريق امين الحافظ. وجدها المدنيون بادرة طيبة تدل على ود وتفاهم خلافاً لما يشاع من سوء تفاهم بين العسكريين .

حملت كل الفئات دون استثناء على القيادة القطرية حتى اضطرت لدعوة إلى مؤتمر قطري استثنائي في كانون الأول اهم ما تناوله مشروع دستور جديد وفقاً لبرنامج اللواء عمران . تتلخص خطوطه فيما يلي : ان يكون للدولة مجلس رئاسة مؤلفاً من خمسة اشخاص وان يكون للبلاد مجلساً وطنياً معيناً من قبل الحزب والنقابات . نصحته ألا يفعل . قلت له هذا المجلس سيضرب حكم آذار كما ضرب مجلس الأمة الوحدة . كنت احذره منه بصورة مستمرة . كان يبدو واضحاً ان مجلس الرئاسة هو للتقليل من صلاحيات الفريق الحافظ الذي اخذت تظهر عليه بوادر السيطرة على الحكم كاملا والتدخل في الكبيرة والصغيرة .

في المؤتمر كان كلّ يغني على ليلاه : القيادة القطرية تدافع عن نفسها فلا تجرؤ على مسّ المواضيع مباشرة .

والاستاذ ميشيل عفلق يهاجم بلا هوادة ويطالب الحزبيين بأن يعودوا إلى عقيدة الحزب وصفائه وعلي صالح السعدي يدافع عن نفسه في الحكم (اصبح آنئذ لاجئاً في دمشق) ويتهم القيادات بالتآمر عليه . ثم جاء دور الدستور فعارضت فكرة مجلس الرئاسة ومجلس وطني معين. واستمرت المناقشة ثلاث جلسات كنت واللواء عمران الوحيدين المتكلمين المهتمين بالموضوع . كلما خرجنا للاستراحة

جاءني الأعضاء مهنئين مشجعين مؤيدين. وعرض المشروع على التصويت وانا متفائل فوافق عليه المؤتمر باجماع الحاضرين ما عداي .

تقدمت القيادة القطرية باستقالتها كما اتفق عليه قبل المؤتمر كي لا تحدث انشقاقات في الحزب . وجاء دور انتخابات قطرية جديدة عددها ضعف عدد الأولى ، أي ١٦ عضواً بحجة كثرة المسؤوليات وضرورة زيادة عدد المسؤولين وكان واضحاً ان العسكريين لم يكتفوا بأعضاء ثلاثة . وأن كثيرين منهم يتطلعون إلى المراكز القيادية في الحزب .

قال لي الرائد سليم حاطوم ونحن داخلان لقاعة المؤتمر : قرر الرفاق العسكريون ألا ترشح نفسك . قلت ومن قال لكم أني انوي ان افعل ؟ ولكنكم ما دمتم اتخذتم هذا الموقف سلفاً فسأرشح نفسي .

عندما فتح باب الترشيح سجلت اسمي واذا بالعسكريين يطلبون استراحة. وعقدوا اجتماعاً خاصاً بهم استمر اكثر من ساعتين ثم نزلوا واستؤنفت عملية الانتخاب .

لم تترك هذه الحادثة مجالا لاحد ان يزعم ان الحزب غير خاضع للتدخل العسكري . ونجحت خلافاً لما كنت انتظر وينتظر الذين صوتوا لي . كان اعتراضاً صامتاً من قبل الأعضاء .

جاءني بعد ايام ضابط يقول لي : كان لانتخابك صدى سيئ في الجيش . قلت له : قل لرفاقك اني سأطلب محاكمتي . وقدّمت الطلب رسمياً فرفضته القيادة القطرية .

بدأ الخلاف يظهر واضحاً بين الفريق الحافظ واللواء عمران رغم كل محاولات إخفائه كما لم يكن خافياً انه في واقع الأمر خلاف بين اللواء صلاح جديد واللواء عمران . وتبين لمن يعرفون خفايا علاقات العسكريين ان حاكم سورية الحقيقي منذ ٨ آذار هو اللواء صلاح جديد ولكنه استطاع بمهارة ان يخفي هويته الحقيقية . استغل جميع الخلافات وسعّرها لمصلحته وجميع الاشخاص كلا حسب طاقته وهوايته . لولا حقده الذي يبلغ اللؤم لأعطى سورية خيراً كثيراً ولكن الضغينة تسيطر على كل عواطفه ، لا يحب ابداً ، يكره دائماً . مناور

عنيد يبدي الطاعة والاستكانة وهو يعدّ الشرك . لا يحتمل اية معارضة او مخالفة لأمر من اوامره حتّى في صغير الأمور . اذا ناقشته اظهر الاقتناع وتودّد لك حتّى لتظنّه صديقك الوحيد وتشتدّ الحملة عليك فيدافع عنك ويقف معك حتّى تسقط . من رآه يؤدي التحية للفريق امين الحافظ بعد ان اصبح رئيساً للأركان العامة عجب للانضباط والاحترام . كان يذهب من قطعة لقطعة عسكرية ينشد المدائح باسمه ويتغنى بكرمه وشجاعته ونخوته الجاهلية ، ينادي به بديلا للرئيس عبد الناصر في المنطقة ويوجّه النقد للفريق من عناصر لم اشك ساعة بأنها تأتمر بأمره فيظن ذاك انه اللواء عمران فيحمل عليه . استغلّ كل القوى المدنية والعسكرية والطائفية .

كان الاستاذ ميشيل عفلق يفترّ ثغره تفاؤلا عندما يراه وانا اعلم انه يعد للخلاص منه يعجب بهذا التلميذ الوفيّ المهذّب الحيي الحزبي الانضباطي. بقي ان يعلم القارىء ان اللواء صلاح جديد لم ينتسب للحزب ولم يقسم يمينه . انضم إلى حلقات الانصار قبل ان يكون طالباً في الكلية العسكرية وحضر عدة اجتماعات ثم انتهت علاقته الرسمية بالحزب ولكنه كان يبدي الميل اليه ويتعاون مع الضباط الحزبيين في الفترة التي كان فيها طالباً في الكلية العسكرية. كان عندي نسخة عن قائمة الحزبيين فيها ولم يكن اسمه بينهم .

لولا حركة ٢٣ شباط لبقي كالظل تفيء اليه ولا تمسك بشخصيته . ولقد حاول بعدها ان يعود ظلا فما تمكن . معروف عنه انه يكره الوساطات والشفاعات والتدخل في القضايا الفردية ولكنك تلمس اثره في كل قضية فردية . عرف عنه انه ضد العائلية. وبحثت في الأمر . لم اجد احداً من عائلته بلغ الثامنة عشر الا وعين في وظيفة . ساهمت ظروف حياته في تعقيد شخصيته . حذر شديد الحذر . معروف انه يساري متطرف ولكن دراسة المخطط الذي سارت حسبه السياسة السورية حتّى ٥ حزيران يناقض ذلك ويدحضه مما يرى القارىء بعضاً منه في هذا الكتاب . يكره الرئيس عبد الناصر حتّى الموت ، يعتبره

مسؤولا عن مقتل اخيه ، لا يحب السوفييت . حين اصبح رئيساً للأركان طلب منه رئيس المدربين الروس موعداً لمقابلته أرجأه خمسة اسابيع وذلك يعني كثيراً بالنسبة للواء جديد . سيء الظن بكل الناس إلا بمن ركع امامه . قصته مع الرائد سليم حاطوم من أغرب القصص بدأت بشتيمة وانتهت بالموت . قوته في صمته وصمت الناس عنه . يستغرب المرء ان كل الاذاعات الغربية ساهمت مساهمة فعالة في التستر عليه وتجنبه مسؤولية ما يجري في سورية . حملات الاذاعات على الحكم السوري لم تتناوله الا لماماً . لا تذكره الا نادراً مع ان زلمه احتلوا مكانة مرموقة في الصحافة وكأنهم مسؤولون حقيقيون .

يتساءل الناس : هل هو طائفي أم لا ؟ قد يكون وقد لا يكون ـ أقيل للاعتقاد أنه غير طائفي ـ ولكنه مسؤول عنها اعتمد عليها ونظمها وجعلها حزباً وراء الحزب .

قد يقول قارىء ما ينبغي لي ان لا اتعرض إلى الطائفية وان اجانبها اما انا فأعتقد انه يجب ان نعالج كل قضايانا بجرأة وروح علمية . إن مجانبتها هي تستر عليها وإذكاؤها .

في الفترة التي اتحدث عنها سألني مرة اللواء صلاح قال : كيف نعالج قضية الطائفية ؟

قلت : بحلول ثورية !

قال : كيف ؟

قلت : اصبحت هذه المشكلة سياسية اولا ولكنها تتعقد يوماً بعد يوم وستصبح قضية اجتماعية وستعرض البلاد للخطر وافضل ان تعودوا إلى المشروع الذي بدأه الجيل العلوي المثقف الذي سبقكم .

قال ما هو : قلت نشر الكتب السرية فالطوائف الأخرى تسيء الظن بكم وتذهب إلى انكم جمعية . يجب ان تبدأوا بالحلول من جذورها وانا موقن ان ليس في كتبكم ما يخشى من نشره . فقد حدثني عنها بعض شبابكم واعتقد مما اعلم ان فيها كثيراً من الفكر والشعر وانا مؤمن انكم غير متعصبين وقد خاض شبابكم كل

معارك النضال فلا تتركوا مجالا للشك بنياتكم . لقد بات ذلك خطيراً عليكم وعلى الوطن .

قال : لو فعلنا لسحقنا المشايخ .

أجبت : ثوري وتخشى المشايخ . كيف اذن نتعرض للمشكلات الكبرى ؟ نقارع الاستعمار ونجبن امامهم ؟

لم يحر جواباً . بدا عليه التفكير وبدأت منذئذ مشاكلي مع الحكم وعلمت فيما بعد انه يدفع الزكاة للمشايخ ويتقرب منهم .

لم تتمكن وزارة اللواء عمران ان تلقي بياناً على الشعب رغم بقائها حتى نصف نيسان (١) . كنا كل يوم نتعرض للنكرزات . ولأعط مثلا عنها : اصدرنا عن دار الوحدة مجلة اسمها الموقف العربي . صدر العدد الأول منها في ١٥ تشرين الثاني اخذت حديثاً من اللواء عمران ووضعت صورته على الغلاف .

مساء اليوم الذي صدر فيه العدد وجدت الوجوه مكفهرّة في المجلس الوطني. وبعد يومين عاتبني الفريق الحافظ قائلا : كان ينبغي ان يصدر العدد الأول في حديث لي لا للواء عمران . هكذا تقضي اللياقة . قلت له : من ناحية اللياقة معك كل الحق اما من ناحية الاعلام فلا. فاللواء عمران وجه جديد كنائب رئيس وزراء والظروف تقضي بتقديمه للقراء حتى نطمئن الناس إلى هذه الوزارة . وأكدت له أني سأكون عند حسن ظنه لياقة . اما اللواء عمران فقد خمنت انه ظن في الأمر مقلباً . وبدأت حملة من كل الجهات على دار الوحدة وجريدة الثورة ومجلة الموقف العربي ذهبت بكل جهازهما ثم امتدت إلى الاعلام كله .

بعد المؤتمر القطري وانتخاب قيادة جديدة دخلها ستة من

---

(١) اعد دراسة طويلة عن كل القضايا السورية اقتصادية واجتماعية وسياسية وطلب الموافقة عليها والالتزام بها كلما حاول خصومه تمييع الموقف.

العسكريين بدأ التمهيد لانتخابات مجلس الرئاسة .

عقدت جلسة الانتخاب ففاز الفريق واللواءان من الدورة الأولى وتعذر انتخاب المدنيين الباقين . أعيد الاقتراع اكثر من عشر مرات وقمت بعملية حساب بسيطة : تبين لي منها ان مرشحي اللجنة العسكرية هما الدكتوران أتاسي وزعين . وخرجنا للاستراحة من اجل التطبيق . سألني اللواء جديد : من يجب ان يكون برأيك العضوان الآخران قلت : الدكتوران !

قال : لماذا ؟

أجبت : ما داما مرشحي اللجنة .

واستأنفنا الجلسة فنجحا . سألني في اليوم الثاني : ما هو الصدى لدى الرأي العام . قلت : دمشق تروي النكتة التالية : سورية يحكمها ثلاثة عساكر بحذائين .

في اليوم التالي حلّ المجلس وخشي العسكريون حملات الاستاذ عفلق فوجدوا حلا لمشكلة الاستاذ البيطار بانتخابه نائباً لرئيس مجلس الرئاسة وعضوية اللواء عمران والاستاذين شبلي العيسمي ومنصور الأطرش. وأرجئت المعركة معه إلى أجل آخر .

بعد ايام زارني في مكتبي بوزارة الاعلام الفريق الحافظ واخرج من جيبه قائمة بالسفارات الشاغرة وطلب مني الانتقاء بينها او ان أظل وزيراً لدى الجامعة العربية قائلا : لقد قرّر الاخوان خروجك من البلد .

قلت : أي اخوان .

قال : أنت تعرف كل شيء .

كنت آنئذ الناطق الرسمي باسم المجلس الوطني لقيادة الثورة وعضواً في قيادة الحزب . انتقيت باريس ووضعت المخابرات اتصالاتي تحت المراقبة وأرسلت عنصراً يقف قريباً من بيتي يطلب هوية الداخلين اليه . ثم أرجىء موضوع سفري فأخذت ألح عل . كانت الدوامة لا تدع مجالا للشك بأن الحكم سائر إلى غير الغاية التي ها منه .

تساءل كثيرون لم لم أتخذ موقفاً واستقيل . كنت موزعاً بين واجبي وعواطفي فقد كنت وما زلت أحبهم جميعاً . أظن رغم التجربة القاسية انهم سيعودون بعد قليل لصفاء العقيدة . لم اكن اتصور رغم ما أرى ان بعثياً قادراً على الشر إلى الأبد .

مع اوائل سنة ١٩٦٤ اخذ سجناء المزة يخرجون فعلمنا اشياء تقشعر لها الأبدان . لم يكن يخطر لي ابداً ان يكون البعث العربي استمراراً للسوط . كان العسكريون يخفون عنا كل شيء . ذهبت مرة إلى السجن واستقصيت وسألت فأجبت هناك ان المعاملة حسنة . لم يجرؤ المعذبون ان يقولوا شيئاً . زارني احدهم في بيتي واراني رجله . أصيبت بالدوار . كنت أنا إذن من زمرة حملة السياط ، جلاداً من الجلاّدين .

في أول نيسان ١٩٦٤ أضربت المدن السورية واحدة بعد الأخرى إضرابات لم اشاهد مثلها ابداً قمعت بالقوة ثم جاءت مشكلة حماة . طلبت تفويضي بالحل فرفض ثم شاهدت تلك المدينة مجزرة لم تعهدها منذ ايام المماليك وابدى البعثيون من ضروب الشجاعة الأساطير . كانت المدافع مركزة على بعد ثمانية كيلومترات منها فقط والقطعات تلحّ على الأذن بالضرب. واعتقد ان الفريق امين انقذها يومئذ حين ضرب بقوة من مصير أبشع .

أذكر اني دخلت عليه قبل سفره اليها . كان في حالة توتر لم اشهده عليها قبلا . كان معه اللواء جديد والدكتور نور الدين . قلت له : ان المشكلة سهلة غير معقدة إلى الحد الذي اراد الناس ان يصوروه . يمكن ان تحل بيسر .

قال : مضى وقت اللين ...

ونظرت إلى وجه اللواء جديد الذي عبس ممتعضاً من تدخلي ففهمت كل شيء ولست بحاجة لأن أضيف ان القيادة العسكرية كانت قد اتخذت القرار بالشدة . كان اللواء عمران يحاول حل المشكلة كلها باللين والمفاوضة فتركه الفريق واللواء جديد ليفعل حتى

اذا استفحل الاضراب لجأ إلى استلام الأمر ورافق ذلك دعوة مركزة ضد سياسة الاقناع وضد اللواء عمران بالذات .

سافرت ليلتئذ إلى القاهرة . كنت ممثلا لسورية في لجنة المتابعة ولما عدت وجدت الا مجال اطلاقاً للاستمرار . فقد بدأ الحزب يهدّم عندما تتاح له الفرصة ويلغ بالدم سعيداً . استقالت الوزارة رسمياً في ١٤ نيسان . في السادس عشر منه رأيت الاستاذ البيطار في القصر الجمهوري قال : أين أنت ؟ ارى ان نتعاون في الوزارة . استمحته عذراً . وفي ٢٨ نيسان صدر مرسوم تعييني سفيراً . وتركت سورية في ٢ تموز ١٩٦٤ ولم اكن بعيداً كل البعد عن كل ما حدث بعد ذلك .

كان تقديري ان وزارة الاستاذ بيطار تلك لن تعمر طويلا . لم تكن غير فترة انتقال يستطيع فيها اللواء جديد ان يسيطر على الجهاز الحزبي .

وضح في الشهور الأولى من سنة ١٩٦٤ ان هذا الجهاز قسمان : قسم تابع للقيادة القومية يسيطر عليه الاستاذ ميشيل عفلق وقسم يتبع الاستاذ علي صالح السعدي ولا مجال للاعتماد كلياً على احد منهما خاصة بعد ان أخذ يتقرب اللواء عمران من جماعة القيادة القومية . ولم يكن خافياً ان القطريين (اعني ما سمي بالقيادة القطرية في فترة الانفصال) كانوا على اتصال دائم بالضباط القريبين من اللواء جديد وكان وهو يحاول ان يتسربوا قليلا قليلا إلى اجهزة الدولة والحزب .

في اواخر سنة ١٩٦٣ كان الحزب يعاني فقر الدم وكنّا نحاول توسيعه وندور دائماً في حلقة مفرغة . كان من الممكن ان نوسّعه من الشعب ولكن طلبات الانتساب كانت ترفض دائماً بحجة حجب الحزب عن الانتهازيين . ماذا كنا اذن نحن بعد كل ما قلت ؟ ناديت بشعار : الاكثار من الانتهازيين حتى تخف الانتهازية فاعتبرها المناضلون نكتة . كنت جاداً .

كان واضحاً ان الفرقاء يخشون نمو الحزب وان يصبح جماهير لا قدرة لهم على السيطرة عليها . كان كل منهم يريده وقفاً عليه ،

أداة في يده ، يريدون عدداً كافياً لا يزيد عما تقتضيه متطلبات الحكم ، يهمهم ان تكون النواة الرئيسية طيعة وبعد ذلك تتوسع بشكل مدروس .

طلب مني بعض الضباط من « الروّاد » ان اطرح عودة القطريين للحزب . وما كان يعنيني من يعود وانما ان يصبح الحزب جماهير ولكن لماذا اختارني اللواء جديد لذلك ؟ الأمر بسيط . رأي الحيادي يقنع الآخرين . وبعد قليل اخذ ينحسر رفاق الاستاذ الشوفي والسعدي عن الحزب واختاروا الرائد سليم حاطوم كي يكون قائدهم العسكري ولم يبق في الساحة غير القوميين والقطريين او بمعنى أدق اللواء عمران من جهة والفريق امين الحافظ واللواء صلاح جديد من جهة اخرى .

هذه الفترة كانت غنية بالحدث السياسي . كان ان تصنع شيئاً في التاريخ العربي ولكنها خرّبت بدل ان تعمّر واعجب من ذلك ان البعث العربي الاشتراكي كان حجر العثرة .

في بدايته أمّل الشعب على يده الخير كله ووثقوا بصدق نيّاته فوضعوا به كل ثقتهم . كان اعتراضنا على وزارة يعني سقوطها ، خصومتنا لحاكم تعني نهايته . الشعب يتبنى آراءنا دون مناقشة . كان رغم اننا صدمنا كل معتقداته وبنيانه الاجتماعي يصدّقنا ويسير في خطّنا . لم نكن كثيرين في عهد المشير حسني الزعيم والرئيس الشيشكلي ولكن الشعب أيّدنا وعارضهما فهوى حكمهما .

جئنا إلى الحكم وقد انتهت القوى الاخرى . فحققنا كل رغبات الاستعمار ونحن نصرخ ضدّه . كان توقيت الخلافات يأتي دائماً في الوقت المناسب حتى ليعجب المرء لهذا التعاطف الوجداني .

انهت الخلافات الداخلية اولا – في اللجنة العسكرية وفي الحزب – إمكانية قيام الميثاق الثلاثي . لم يستطع الرئيس عبد الناصر ان يعرف إذا كنا نريده فعلا او نناور عليه : كنا نريده ونناور عليه .

بعد ان ذهب الأمل بهذا الميثاق رأت القيادات ان قيام وحدة مع العراق بات ضرورة بل حتمية تاريخية . الحزب يحكم البلدين

والظروف الاخرى مواتية . واردنا الا نتسرع وان نبدأ بالاقتصاد حتى نقيم وحدة لا تنفصم. وذهب الدكتور طعمه (وزير الاقتصاد آنئذ) على رأس وفد وعاد بعد ايام فرحاً متفائلا يقول : ما كنت اعتقد ان الاقتصادين يكملان بعضهما إلى الحد الذي رأيت . ان حل مشاكل الاقتصاد السوري في العراق : هو سوقنا الطبيعي ، ونحن سوقه . ان المشاكل السياسية بين البلدين هي التي ضربت اقتصادهما . النقد نفسه ليس مشكلة ابداً بعملية بسيطة يصبح الدينار العراقي وحدة في النقد السوري والليرة جزءاً منه . وعلى ذلك بدأنا بالوحدة العسكرية التي نفذت فوراً وذهبت قطعات من الجيش السوري لتقاتل في شمال العراق .

وفي ايلول غادر دمشق وفد من المجلس الوطني لقيادة الثورة كي يشترك في جلسات المجلس الوطني لقيادة الثورة العراقي ويمهد لمجلس واحد مشترك من البلدين ويدرس خطوات التوحيد .

كان جو الاجتماعات جيداً. واجتمع الوزراء السوريون بزملائهم اجتماعات ثنائية فرأينا تعاوناً وسهولة في التنفيذ لم نكن ننتظرهما . لقيت في وزارة الاعلام من الاستاذ صالح السعدي استعداداً وسرعة في التنفيذ والانتقال من الفكرة إلى العمل ما ملأني تفاؤلا .

وفي اليوم الثالث لزيارتنا رأيت وزير الخارجية الاستاذ طالب شبيب في القصر الجمهوري فجلسنا نتحدث معاً . قال : « هذه الوحدة لن تقوم ، ألا تعلم ان الرئيس عبد السلام عارف يعد انقلاباً ضدنا وان الخلافات بيننا تنذر بخطر شديد ؟ »

قلت : ما تعني ؟

قال : لم يعد الحزب حزباً تفتت . بعضه يتآمر مع الرئيس عارف ضد البعض الآخر . لقد وصل الصراع الداخلي إلى الحد الذي بات معه احدنا يخشى ان يغتاله الآخر .

ليلتئذ سهرت مع الرئيس عارف في القصر وعلمت منه انه غير راض عن سلوك البعثيين : استهتارهم بالمسؤولية وخروجهم الشاذ على

تقاليد المجتمع وعدم وحدويتهم وشراستهم ... ولكنه طمأنني إلى ان الأمور ستسير في طريق التحسن .

في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣ اصطدم الحزبيون ببعضهم ، فريق مع الرئيس عارف (جماعة القيادة القومية) وفريق ضده (جماعة الأستاذ السعدي) .

في ١٨ منه تخلص الرئيس من الطرفين . منذ عهد الملك فيصل الأول حتى الساعة كلما نضجت ظروف الوحدة بين هذين القطرين حدث ما يؤخرها ونبحث عن الأسباب فلا نجدها . قبل دخول البعث إلى الحكم اتهمنا الاستعمار وعملاءه ، من نتهم الآن ؟

وانتهت احلام الوحدة الثنائية بعد الوحدة الثلاثية واخذ الحكم يدور في الفراغ يبحث عن شعارات للجماهير ، فدخل إلى ساحة المزايدات الاشتراكية من بابها العريض .

درسنا التأميم فتبينا ان المعامل ـ ما عدا واحد ـ هي مدينة للدولة بأكثر من رأسمالها ، وانقسمنا قسمين : أحدهما يرى أخذ المعامل بديونها بالتفاهم مع اصحابها فاما ان يسددوا جزءاً فتدخل الدولة شريكاً وإما ان يتنازلوا لقاء الديون . كانت الطريقة عملية نصل بها إلى النتائج التي نريد ونتجنب هزة اقتصادية ولكن روح المانشيت تغلبت على هذا الرأي. وقرأت الصحف وانا في باريس فعجبت للضجة المفتعلة ولهذا التأميم الكرتوني الغوغائي . جئت لسورية في تلك الفترة وإذا الرفاق في أوج نشوة النصر يتحدثون ضاحكين عن بعض الاخطاء الصغيرة كتأميم معمل كبريت قوامه طنجرة يحتل غرفة من بيت صاحبه وعن السرعة والمهارة في الاستيلاء . واظنني الآن في غنى عن الحديث عن وضع المعامل وتدهورها وسوء الاستعمال وعدد العاطلين عن العمل في قلب المعامل الذين يتقاضون راتباً عن كسلهم . ان نسبة انتاج العامل في المعامل المؤممة هي ادنى نسبة في العالم. ولاعط مثلا على ذلك : أمهر عامل نسيج في العالم هو الياباني يشرف على (٢٦٠) مكوكاً . آخر نسبة في يوغوسلافيا ، يدير

العامل (٦٠) مكوكاً وفي سورية سبعة فقط .

اما الاصلاح الزراعي فهو عجيبة القرن العشرين . تخضع الملكية لعدة قوانين في سورية من القانون العثماني إلى قانون العمل الزراعي وكلها غير نافذة المفعول . الملكية خاضعة لأهواء موظف الاصلاح الزراعي وقيادة الحزب المحلية (فرع او شعبة او فرقة) لا سلطة لاحد عليه . الوزير يتوسط بينه وبين الملاك وقلّما تنجح الوساطة .

ان الغاية من الاصلاح الزراعي هو انشاء طبقة فلاحية على اساس تعاوني مبني على المستعمرة الإشتراكية التعاونية . شيء لم يأبه له الحكم في سورية بل لم يهتم به ، فتتت الملكية فقط وجعل من الاحقاد المحلية قانون الاصلاح الحقيقي .

لا اعني من ذلك اني ضد الاشتراكية او غير اشتراكي وانما اذهب إلى انها يجب ان تكون واقعية علمية او كانت تخريباً . ان اللعب بالاقتصاد خطير . واذهب إلى ابعد من ذلك : ان تحقيق الاشتراكية في قطر عربي دون النظر إلى الاقطار الاخرى وافتراضه وحدة اقتصادية هو الانفصال الحقيقي اي ضد الثورة . الثورة هي الوحدة : كل اصلاح لا يضعها نصب عينيه هو فساد وإفساد لفكرة البعث العربي .

كان شعار التأميم والاصلاح الزراعي دائماً : يجب ان نسبق عبد الناصر ... اما الواقع الاقتصادي فقليلون هم الذين فكروا به . مستقبل رسالة البعث لم يرد إلى ضمير العقائديين .

لست في حاجة إلى القول ان اشتراكية البعث هي عربية هدفها العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرصة في المجتمع العربي . لم تكن ابداً مانشيت صحفية . ان تنفيذ الاشتراكية في قطر وحده يوجد علاقات جديدة في المجتمع تبنيه على أساسها . وقيام نظامين اشتراكيين في بلدين عربيين دون تنسيق بينهما يعني قيام مجتمعين مختلفين تنتظمهما علاقات اقتصادية اجتماعية متباينة تؤدي مع الزمن إلى دولتين لا يمكن

توحيدهما . وأرى فوق ذلك ان فشل التجارب الاشتراكية العربية رغم ما أحيطت به من شعارات يدل على أن القومية مصير أقوى من محاولات الانفصال السياسية والاقتصادية .

أخرج اللواء عمران من سورية وهو عضو في القيادتين القومية والقطرية فأصبحت القيادة القومية ، ولكنها لم تتخذ موقفاً جدياً . كان عليها ان تعتزل الحكم . كان ذلك رأي الأستاذ عفلق ، ولكن أحداً لم يصغ اليه .

وجد الفريق الحافظ نفسه وجهاً لوجه امام اللواء جديد . يقول في إحدى خطاباته : « أرفض ان اكون واجهة إلا للحزب . » هذه الكلمة تعني كثيراً للوزارة بالاضافة إلى القابه الأخرى .

استقالت وزارة الاستاذ صلاح البيطار وعاد الفريق امين رئيساً وكان الدكتور أتاسي نائباً له .

جئت في زيارة لسورية من اجل اعمال تتعلق بالسفارة وذهبت لزيارة الفريق الرئيس. ودخل علينا الدكتور أتاسي فوقف استعداداً واخذ يحدثه مبتدئاً « بسيدي » ثم خرج فقال لي الفريق : الدكتور ممتاز .

لم أجب ولكني استغربت الاستعداد وسيدي . ورأيت من اتصالاتي ان خطة إقصاء الاستاذ ميشيل عفلق قد بدأت . وجاء بعد قليل الدكتور منيف الرزاز من الأردن غازياً منقذاً للحزب من عثاره بعد الحاح من الفرقاء . حتى ذلك الوقت كان الفريق واللواء جديد متفقين ، ثم تبدلت الأمور حتى أصبح الخلاف واضحاً بينهما : الشارع والمقاهي تتقاذف النقد اللاذع لكل منهما .

كان العسكريون على خلافاتهم مجمعين على ان يحلّ الدكتور الرزاز محل الاستاذ عفلق ، ولم يكن خافياً ابداً انها مرحلة انتقال . حاول الدكتور الرزاز أن يسيطر على العسكريين بحل اللجنة العسكرية وايجاد مكتب عسكري تابع للحزب وتوصل إلى ذلك ولكنه وجد نفسه امام المشكلة الأزلية : اللجنة العسكرية غيّر لنا اسمها فقط ولم

يستطع ابداً أن يتدخل في أمور الجيش ورأى بعد قليل ان الحزب تابع لأحد الفريقين شاء ام ابى فالجهاز الحزبي أداة بيد العسكريين لا له ولا للحزب (أعني القيادة) أي أثر غير الأسم .

وجد الفريق نفسه وقد اطبقت عليه الكماشة فلم يكن اللواء جديد ممن يقبلون طويلا وجود مثله في الحكم له شخصيته المستقلة . ورأى ان الذين ظنهم معه هم عليه وانحاز إلى مواقع القيادة القومية . رأى ان اكثرية اعضاء المؤتمر القطري باتوا من اعداد المخابرات والشعبة السياسية .

كان الاستاذ ميشيل عفلق شرساً لاذعاً استعد للمقاومة مهما كان الثمن . اما الجيش فقد انقسم انقساماً واضحاً واخذ كل يجمع قواه فباتت عودة اللواء عمران ضرورية . وعاد فعلا وظن الناس أن السلام قد حل بينه وبين الفريق .

كنت في باريس عندما قرأت حل القيادة القطرية والوزارة واستيلاء القيادة القومية على الحكم وتكليف الاستاذ صلاح البيطار بآخر وزاراته. قلت لأحد اصدقائي : هذا يعني انقلاب .

قليل من الناس انتبهوا خلال محاكمة « كوهين » إلى برقية وردته من اسرائيل تسأله في اوائل سنة ١٩٦٤ ما يلي : « هل الوقت مناسب لهجوم على الجيش السوري ؟ » فكان جوابه : لا .

هذه البرقية وهذا الجواب مرت بهما اجهزة الاعلام السورية والمحاكمة مرور الكرام مع انهما أهم ما في المحاكمة . ترى هل كان ذلك غباء ؟

تعرض الجيش السوري لهزة كبيرة بعد ٨ آذار فقد سرح منه ٧٠٠ ضابط وحل محلهم معلمو المدارس الاحتياطيون ، على انها فترة انتقال . وقد اظهر كثيرون منهم انهم يليقون بالخدمة رغم كل ما قيل وكان التقدير انه يعود اقوى بعد سنوات خمسة ، عندما تخرج الكلية العسكرية وبقية المدارس العسكرية دفعات جديدة ترمم العجز . واثبت الجيش عندما اشترك في معارك شمال العراق انه قادر على

خوض معركة وان الخلل لم يؤثر عليه ، تميز بروح معنوية عالية انضباطية ومرونة عظيمة في القتال والمناورة وان قياداته من مستوى جيد .

يرى المراقب فيما وراء الأحداث والخلافات ان مستوى الجيش أخذ يهبط سريعاً تدريباً وانضباطاً . وخرج منه الضباط القادرون على قيادة معركة واحداً بعد الآخر حتى آلت اموره إلى اللواء أحمد سويداني وهو انسان ذكي لا شك ولكنه عسكرياً من ناحية التدريب نقيب فقط .

لن اذكر تفاصيل ٢٣ شباط فما زالت طرية في ذهن القارىء ولكن نتائجها المباشرة كانت على الجيش اولا وآخراً . خرج منه كل القادرين على خوض معركة . كانوا من القوميين او الشباطيين .

الفريق امين الحافظ وهو على اخطائه ضابط شجاع حتى التهور . ربما كان لا يستطيع النصر في ٥ حزيران ولكنه كان اهلا لأن يعطي امثولة للجيش السوري فلا يسلم شبراً الا على جثته . وما احوج الجيش الجديد للدروس . اللواء فهد الشاعر : قد يكون اكثر ضباط الجيش السوري حباً بحرفته وايماناً بها . من طينة العلماء العسكريين وكان الجيش بحاجة لقيادة تفهم اسرار المعركة والمناورة . اللواء محمد عمران : من أكفأ ضباط المدرعات ، ماهر المناورة ، بارد الأعصاب . لا يهزّه الحدث ، كثير الحسابات يعطيها المقام الأول في تصرفاته . العقيد عبد الكريم الجندي : كان افضل ضابط مدفعية في الجيش السوري. قريب من المعركة . منع من قيادة لواء المدفعية الصاروخية بحجة انه مغامر .

وكان ضباط آخرون مهرة خارج البلاد يتابعون دورات دراسية في الوقت الذي كان ينبغي ان يكونوا على رأس قطعات مقاتلة .

لم يكن ٢٣ شباط لتنظيف الجيش كان لا بد من ٨ ايلول قصة التوريط وجرّ الخصم إلى معركة .

في ٨ آذار كان النقيب سليم حاطوم على رأس اول كتيبة دخلت دمشق . كان عمره خمسة وعشرين عاماً . تعرفت اليه في تلك

الفترة : وجدته مهذباً وكريماً . وأخذ يلمع نجمه . أعطي امكانيات فوق طاقته وعمره فاغتر ولكنه كان يقبل النصيحة فيؤوب إلى رشده ، كان طيب القلب تنطلي عليه الحيل .

في بداية الخلاف بين الفريق امين واللواء صلاح انحاز إلى الأول واصطدم بالثاني فشتمه ثم انضم اليه بعد وساطات الاصدقاء وكان سهم الحربة في الهجوم على بيت الفريق في ٢٣ شباط. وبعد ايام منه أخذت تدور حوله الدائرة .

لم تكن مؤامرته خافية على احد . كان الشارع يعرف عنها كل شيء . وانتهى ٨ ايلول بفراره وخروج عدد جديد من الضباط من الجيش . اتهمه كثيرون بأنه امريكي واتخذوا دليلا قول السفير الامريكي (إذا صح) ان الحكم سيسقط بعد شهرين . لو سألت أي سفير منذ ٨ آذار حتى الآن عن الحكم لقال لك سيسقط بعد شهرين . ولو شككنا بحاطوم لما ذهب شكنا أبداً لكل الذين تعاونوا معه فالعوامل اعمق من ذلك . ان خلل الحكم يسبب دائماً الافتراقات وعقلية المناورة المسيطرة عليه تدفع الآخرين دفعاً إلى التآمر عليه .

أشيع انه عندما عاد في ٩ حزيران ١٩٦٨ جاء كي يقوم بانقلاب غير ان الذي اعلمه ان الاتصال بينه وبين الحكم كان مستمراً قبل الحرب. كانوا يؤكدون له رغبتهم في العفو عنه وإحلال الوئام. ولا استطيع الآن ذكر التفاصيل فهنالك اسماء لا يمكنني المقام من ذكرها .

وعمدت القيادة القطرية إلى اسلوب عجيب بالتقرب من الضباط وإفسادهم : من ثبت ولاؤه ارسل في بعثة خارجية ، كي يتدبر امور مستقبله اقتصادياً دون النظر إلى المقدرة على التمثيل او معرفة اللغة . عرفت ملحقين عسكريين في باريس يجهلون الفرنسية جهلا كاملا . وهنالك من ارسل بحجة المداواة دون النظر إلى تقارير اللجان العسكرية . كان في سفارة باريس يوم تركتها ثلاثة واربعون ضابطاً ، ستة منهم مرضى حقيقيون ، رواتبهم تزيد على (٢٠٠) الف فرنك ونحن

نعاني اكبر الصعوبات لاصدار نشرة اكلافها اقل من نصف راتب ضابط واحد .

هكذا كانت الحال والبلاد قادمة على حرب .

منذ ١٩٦٣ كان واضحاً اننا خاسرون في معركة معاسرائيل فقد اجمعت كل التقارير على عدم قدرتنا (١) . كنت آنئذ في لجنة المتابعة وكنت احمل التقارير التي تنهي عن المزايدة وعن التفكير بالحرب .

كان حكم سورية يدفع دفعاً اليها مع ان اقل الناس ادراكاً كان يعرف ان تأجيلها في مصلحتنا .

ميزانية الدولة السورية لا تمكن من خوض معركة . لم يتطرق احد من السياسيين السوريين والعرب إلى موضوع الميزانية فالحرب اولها الكلام ولكن النصر للميزانية اولا ثم تأتي بعد ذلك العوامل الأخرى .

وفي تلك الاثناء يخطب الدكتور أتاسي قائلا : « سنطعم الأسطول السادس لاسماك المتوسط » . واستحكم الخلاف بين الأردن وسورية في الفترة التي كان فيها الأردن ضرورياً للمعركة . كان حظ العرب الوحيد من النجاح هو وجود الجيش السوري في المثلث العربي كي يحاول قسم اسرائيل إلى قسمين . ذلك كله كان تحضيراً للهزيمة لا الحرب. وقد يكون ذلك عن غباء ولكن هل يمكن ان يمتد الغباء إلى هذا الحد ؟ لا استطيع ان اصدق .

هذا وبعد ما الفرق بين الغباء والخيانة اذا كانت النتيجة واحدة ؟ (٢)

سألني أحد المسؤولين السوريين بعد حرب حزيران : كيف ترى الأمور ؟

قلت : ان اسرائيل لا تريد السلام ولذلك لن يكون هنالك سلم. لا تريد الاعتراف بها لانه يعني عدم توسعها في المستقبل. وكل البوادر

---

(١) انظر كتاب عرب ويهود.

(٢) تفاصيل حرب حزيران في « من السفارة الى السجن » .

تدل على انها تعدّ لحرب اخرى سنة ١٩٧٠ (تصريح دايان الأخير في شهر نيسان ١٩٦٩ لمجلة الأكسبريس الفرنسية لا يدع أي مجال للشك) . الأردن لم يعد دولة لقد انتهى . العربية المتحدة تعاني صعوبات اقتصادية خطيرة تجعل من المستحيل قيامها بحرب قبل ان تبدأ باستغلال البترول الذي ظهر حديثاً وأخشى ان تتورط تحت الضغط الشعبي بعملية غير مدروسة كما اخشى ان تبادرها اسرائيل بهجوم قبل ان يتم استعدادها . جنوبي لبنان اصبح مهدداً . حماه الجنرال ديغول في حرب حزيران من الاحتلال كما حمى قناة السويس من ان تصبح اسرائيلية بكاملها . واذكرك ايضاً انه هو الذي حمى دمشق. ولكن حكم الجنرال لن يطول فالحملة عليه لا تدع مجالا للشك بسقوطه .

قال : والحل ؟

قلت : ان نفكر بالدفاع ولن نتمكن منه الا بوحدة سريعة مع العراق . ان جيشي البلدين اذا وحّدا يستطيعان الدفاع عن سورية والا فاعتبر ان جبل الدروز لن يكون سورياً سنة ١٩٧٠ وربما دمشق .

قال : ولكن عبد الرحمن عارف لا يرضى .

اجبت : ومتى كان البعث يحقق شعاراته عن طريق الرؤساء . اطلقوه يسقط الرئيس عارف اذا عارضه فالوضع الشعبي في البلدان العربية لا يحتمل بعد الهزيمة التردد امامه . . ولا اقدر ان الرئيس يرفض فهو سبيله الوحيد للبقاء في الحكم .

قال : انت لا تستشرف المستقبل يجب توحيد كل البلدان العربية المتحررة .

قلت : هذه لعبة قديمة لتمييع الموضوع فالوحدة التي تتحدث عنها اصبحت مستحيلة .

قليلا بعد حرب حزيران صرح ليفي إشكول قائلا : إن اسرائيل ترفض قيام أية وحدة او اتحاد بين الاقطار العربية المجاورة .

كان حكم الرئيس عارف على كف عفريت وكان البعث القومي يعدّ قبل ٥ حزيران انقلاباً ضده وكذلك الشباطيون وأظن انه كان

يجيء لمصلحة الأخيرين لو نادوا بالوحدة مع العراق مباشرة بعد حزيران ولكنهم جنحوا إلى شعارات عجيبة : مزيداً من الاشتراكية ولم يقولوا في اي قطاع : المعامل مؤممة والأرض في مرحلة النيهيليسم .

وأهم من ذلك الكفاح المسلح والمناداة بالحرب دون الأخذ بأية استراتيجية عسكرية فالجبهة الشرقية هي نقطة الضعف لأن المناضلين يرفضون التعاون مع العراق والأردن لاسباب ثورية والحرب داقية ولما توضع خطة عسكرية عربية قريبة ويحملون شعار الفدائيين وقد رأيت عدداً منهم في السجن لانهم قاتلوا في الجولان مما يسيء لاسرائيل أذكر منهم المقدم علي بوشناق واكثر من هذا لم ينادوا بوحدة العمل الفدائي وأرى انه لن يجدي موزعاً مقسماً .

نجحت القيادة القومية في العراق وانتظر الناس ان ينسى البعثيون احقادهم فيوحدوا القطرين استعداداً لمعركة المستقبل ولكن الفريقين وضعوا الشرعية الحزبية فوق الوحدة . وزاود الشباطيون باليسار فوضعوه أيضاً فوق الوحدة وفوق الأرض ، فوق الوطن .

تعتبر دمشق عسكرياً مدينة ساقطة بيد اسرائيل والجيش السوري غير قادر للدفاع عنها فما يعني الموقف الحالي بين العراق وسورية ؟ لا حاجة بي للجواب وأرى البعثين يبتعدان يوماً فيوماً عن تحقيق فكرة الوحدة بين البلدين بالقدر الذي تقترب فيه الحرب. وأخذ كل منهما يناور على الآخر وبالغ الحكم في سورية فتآمر مع البرزاني ضد بعث العراق .فهو ينطلق من مقولة الأرض لا معنى لها ما دام الحزب باقياً. قد يظن القارىء اني ابالغ ولكن الحكومة العراقية ضبطت بعض الأسلحة . وأنا متأكد من مساعدة مالية قدرها سبعة ملايين ليرة ومتأكد من وجود تفويض بالصرف موقع من : اللواء جديد ، الدكاترة أتاسي وزعين وماخوس. ولا اظن الحكم في سورية يجرؤ على تكذيب ذلك . متأكد ايضاً من ان قتل العقيد نصرت كان بتصميم الحكم السوري رغم انه كان متعاوناً معه إلى حد بعيد ، وأعرف ايضاً انه جاء إلى سورية

أربع مرات بعد انقلاب العراق الأخير وقد كانت السلطات السورية تخبر السلطات العراقية عن مجيئه ورواحه. لقد قدم تقارير ظن معها اليغثيون السوريون انه قادر على القيام بانقلاب شباطي وكان طموحاً يخشى منه. ومن يعرف اللواء جديد وحذره من اصدقائه يدرك كثيراً من الأشياء وغلّف موته في العراق بالتستر على فضيحة أخلاقية وفي سورية سمعة الرفيق . اما (ولاويل) الاذاعة السورية فما كانت الا للتغطية .

قد يظن القارىء ايضاً اني ابالغ فالحادثة تبدو متناقضة جداً اشبه بالروايات البوليسية ينقصها التعليل المعقول ولكني اؤكد للقارىء ان الحكم السوري لن يكذبها فهنالك ايضاً تفويض مشابه لمساعدات البرزاني . ولا ننس ان العقيد نصرت كان قريباً من الخلافات السورية الأخيرة وانحيازاتها .

ينتظر القارىء ان احدثه عن هذه الخلافات ولكنها غائمة يضل المرء في الحكم عليها يظن احياناً انها تحتمل مجال التصديق والتكذيب ولا بد من مضي وقت ما حتى يصل المراقب إلى قناعات عنها . لقد وصلتنا عنها انباء حكمنا معها ان الأمر جد ثم تبين خطأنا سريعاً . ورافقتها تمثيليات « جيمس بونديه » دفعتنا للشك بوجودها أصلا .

أذكر منها ان الخلاف . عندما استشرى قررت القيادة الحزبية ان ترسل الدكتور ماخوس في رحلة إلى الاقطار العربية المتحررة يستنهض همم الثوريين كي يتدخلوا في الخلاف ولما كانت المهمة خطيرة وصعبة طلب إلى سفير الجزائر في دمشق ان ينقله في « « تابون » سيارته إلى بيروت انقاذاً لحياته ثم رأيناه بعد رفض هذا يجيء بيروت معززاً مكرماً ويسافر معلناً ان الدم يكاد يملأ شوارع مدن سورية ، ومن المضحك المبكي ان الوفود جاءت وهي متأكدة من أنها تساهم بتمثيلية . وأخيراً لطف الله وانتهت الأزمة بانتحار العقيد عبد الكريم الجندي .

في سجني الأخير مكنتني الوحدة من التأمل طويلا . كتبت في مذكراتي :

آثار التعذيب الوحشي في الأجساد أرتني أين وصلت عشائر البعث

العربي الاشتراكي التي شاءت الصحافة أن تسميها أجنحة وهي قبائل همجية .

قد يرى كثيرون في هذا التعبير حقداً وقد أحبّ آخرون من رفاقي قدامى أن يثنوا عزمي عن هذا الكتاب ومما آليت أن أصدر في المستقبل متعللين بالأمانة للماضي وبعدم طاقتي على المقاومة بعد ان اصبح الرفاق حكومات .

لا أنكر أن عدّتي للمقاومة قليلة وأن الشهور الأخيرة من حياتي كانت عذاباً لم أهيىء نفسي حتى إلى بعض منه ولكني أتألق سعادة ، أرفل بالمسرة لأنني دفعت ثمن مسؤوليتي وأظنني سأدفع أيضاً .

أنا لم أقل في هذا الكتاب أني لم أكن مسؤولا لم أبرىء نفسي من كل ما صنعه البعثيون . كان علي أن أعلن موقفي ولذلك كنت حتى ظهور هذا الكتاب رغم السجن والتشرد وما كتبت قبله مسؤولا كامل المسؤولية عن كل ما صنعوا دون استثناء .

لقد فهم البعثيون الأمانة للماضي على أنها تستر على التلاعب بالمبادىء فسخرها المتسلطون لتسلطهم وتلاعبوا بها على هواهم ، إن أمانتي للماضي تملي علي أن أجهر برأيي دون حذر حتى لا يركب البعثيون رؤوسهم .

لقد تميّز حكم البعث في العراق وسورية على اختلاف قياداته بالتسرع فكانت سياسته العامة ردود فعل كيفية خالية من الحكمة يضاف اليها اعتداد بالنفس مغرور ، فآل ذلك إلى بطش وطغيان واستهانة بالانسان واعتبر البعثيون أنفسهم أوصياء على الشعب قيّمون على اخلاقه من ليس معهم خائن فظلموا .

إني ليدفعني وفائي لهم وحبي لهم لأن أقول كلّ ما ينبغي ان أقول فلا أخفي شيئاً . لقد أصبت في هذه الفترة بخيبة أمل كبيرة . كنت أنتظر أن يحتج كثيرون . انتظرت أن يقول الأستاذ عفلق شيئاً يفعل . ظن بعض ان إقامته في باريس هي احتجاج صامت على تصرفات البعثيين في العراق والاعتراض إما أن يكون نداء جريئاً أو تستراً.

انتظرت أن يقول الأستاذ الحوراني شيئاً وليته أخلد للصمت .

لقد أدى السكوت عن حكم دمشق إلى هزيمة حزيران الفاضحة . لم يكن الجيش السوري أبداً جباناً . شهدت له عشرون سنة بطولات خارقة ولكن الجيش لا يقاتل بلا شعب ولقد ذلّ الشعب في حكمنا حتى ما يقاوم ولا يقاتل ... إلى هذا قاد التستّر .

بدأ البعث العربي بالانسان وتقدسه وآل إلى جلاّد انتهى البعث العربي بالبعث العربي الاشتراكي فقد فيه أصالته كما فقد فيه العربي الاشتراكي نضاله .

أصبح البعثيون بلا بعث والبعت بلا بعثيين : أيديهم مصبوغة بالدم والعار يتسابقون إلى القتل والظلم والركوع أمام مهماز الجزمة .

ولكن البعث العربي يظلّ رسالة خالدة أؤمن بها لأنها وحدة وحرية وتقديس مطلق للانسان .

ان اليد التي اغتالت قدسية الانسان ليست على مقياس البعث .

قد يكون هنالك بعثيون حقيقيون غمرتهم موجات السلطة والهمجية ولكنهم ليسوا أهلا لهذا الاسم اذا لم يعودوا إلى ينابيع البدايات الصافية : إلى البعث العربي .

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها